روايات عبير

جانيت ديلي

الحصار الفضيّ

www.elromancia.com
مرمورية

٤٨

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 48

الحصار الفضي

يقال فلان «وقع» في الحب ولا يقال طار حباً. ربما لأنّ الحب رمال متحركة كلّما تململ فيها المرء ازداد غرقاً واختناقاً.

...وما دام كل شيء إلى زوال لا يبقى القلب الجريح جريحاً الى الأبد.

وكايسي التي تشبه زهرة خشخاش شائكة ترعرعت حرّة كالريح في مزرعة والدها، لم تكن تحب القيود ولا الحدائق المسوّرة. قلبها كدوّار الشمس يتابع الضوء. لكن هل يحق للحب ان يعكّر سماء عينيها فتتلبدان بالدموع؟ الحب يحيي ولا يميت. وفلينت ماكاليستر الذي حاصر كايسي بأسلاك عواطفه وحوّل أصابعه إلى قضبان كالسجن، متى يطلق عصفورته الأسيرة كي ترى إذا كانت ستعود اليه؟

لبنان	٧ ل.ل.	الكويت	٧٠٠ ف	اليمن	٨ ر	السودان	٨٠٠م
سورية	٨ ل.س	الامارات	٩ د	تونس	١ د	U.K.	£ 1
الأردن	٥٠٠ ف	البحرين	٩٠٠ ف	ليبيا	٧٠٠ د	France	F 10
العراق	٥٠٠ ف	قطر	٩ ر	المغرب	٨ د	Greece	Drs 120
السعودية	٨ ر	عمان	٩٠٠ ب	مصر	٨٠٠م	Cyprus	P 1

١ - غيوم فوق المزرعة

تساءل الصوت الضعيف من فراشه بالمستشفى:

«أما من قبلة للرجل المسن يا حبيبتي كايسي؟»

فابتسمت كايسي غيلمور وهي تتفادى الحبال والأثقال التي تشد قدم والدها، وقبلته برفق وهي تلاحظ الشحوب البادي عليه، حتى المسكنات لم تستطع مسح آثار الألم من عينيه، وإنما قللت من بريقها فقط.

«آسفة لتأخري يا أبي».

قالتها بدون أن تصل ابتسامتها إلى عينيها القلقتين، بينما نظرت كايسي إلى أمها الجالسة بجوار الفراش قبل أن تجلس هي في مقعد مجاور لها.

«بدأ القلق يساورنا عليك».

قالتها الأم وهي تنظر إليها بإمعان، وقد بدا في صوتها الخوف الذي أصبح شيئاً مألوفاً في الأيام الأخيرة.

«لقد تناولت الغداء مع جوني قبل عودته إلى نورث بلات».

وحاولت كايسي وهي تفسّر سبب تأخرها ألاّ يلاحظ والدها مدى خيبة أملها التي انطوت عليها مقابلتها لجوني. وبالرغم من محاولة والديها أن تبدو تحيتهما لها عادية، إلاّ أنها شعرت أنهما كانا منشغلين في نقاش حاد قبل وصولها، فحاولت أن تقول شيئاً يملأ الصمت الرهيب.

«لم تبدأ في مغازلة الممرضات بعد يا أبي؟»

تنهّد جون غيلمور محركاً رأسه الذي بدأ الشيب يدبّ في شعره وقال:

«لا يبدو أنني سأفعل ذلك، إذ سأقضي في هذه الحبال والأثقال ستة أسابيع».

ونظر إلى سقف الغرفة في يأس وهو يلعن حظه العاثر وقال:

«لم يكن هذا الوقت مناسباً لأقع عن ظهر الحصان. ومع ذلك، كيف الحال في المزرعة يا كايسي؟»

وجدت كايسي صعوبة في مواجهة والدها الجاد وحمدت الله أن والدتها قضت الأيام الأخيرة مع والدها في سكوتسبلاف بحيث لم تعرف شيئاً عن الأزمة الأخيرة التي حلّت بالمزرعة، وكانت الأم لا تستطيع أن تخفي شيئاً عن زوجها حتى لو حاولت ذلك.

«كل شيء بخير يا أبي غير أنّ الجميع يشعرون بوحشة لغيابك عنهم»

وحاولت كايسي ألاّ تفكر في المضخة المكسورة والعشرة رؤوس الماشية المفقودة من مرعى بيرنت هولو وسأل الأب ابنته بطريقته المعهودة في قراءة أفكارها، قائلاً:

«هل تخفين شيئاً عني يا كايسي؟»

«إنك دائم القلق يا أبي، فكل ما حدث هو أن الحصان اينجان فقد حدوة من حدواته وليته كسر ساقه حتى يضطرني إلى رميه بالرصاص».

فضحك الأب ضحكة هزيلة لعبارة ابنته المرحة لكنها ضحكة لا تقارن بقهقهته المألوفة وقال لها:

«حينئذ كنت أعاونك في حشو البندقية!»

لكن سرعان ما بدا وجهه جاداً وهو ينقل نظره بين زوجته وابنته ويقول:

«مرّ عليّ اليوم فريد لولور من البنك بعد انصرافك مع جوني».

«لا تقل لي إن هناك مشاكل جديدة!»

وتنهّدت كايسي وهي تعلم حرج مركز عائلتها المالي، بعد هبوط سعر الماشية في السوق، لكنها فهمت من نظرة والدها أن صديقه لم يزره لأسباب وديّة، ومع ذلك أخفت ما في نفسها وقالت:

«هذا كرم منه يا أبي».

إلا أن جون غيلمور تململ في سريره وقد بدا ثوب المستشفى الأبيض غريباً عليه وقال:

«نعم لكنه قدّم اقتراحاً كنت أبحثه مع والدتك».

فتوترت أعصاب كايسي رغماً عنها وهي تستمع إلى كلام أبيها وهو يقول:

«يعلم أنني سأظل في قيودي هذه، ستة أسابيع أخرى على أقل تقدير حتى تلتئم عظامي، وحتى بعد ذلك، تعلمين أنني لم أعد شاباً، وبالرغم من عملية المسمار التي أجريت لي فإنني سأحتاج إلى وقت طويل حتى أشفى. وفي الوقت نفسه تقع مسؤولية إدارة المزرعة على عاتقك».

فطمأنته كايسي بسرعة قائلة:

«في مقدوري القيام بذلك يا أبي، انتهينا من جز الماشية وترقيمها وتحصينها بالحقن قبل إصابتك. كما سينتهي مارك من دراسته قريباً ويستطيع أن يساعدني بالرغم من بلوغه الخامسة عشرة فقط كما أنك ستشفى من مرضك يا أبي وتعاونني في الأعمال اللازمة للخريف».

إلاّ أنّ النظرات المتبادلة بين الوالدين أشعرت كايسي بأنّ محاولاتها لم تكن ناجحة فاستطردت تقول:

«سام أيضاً موجود، وإذا احتجت لمزيد من المساعدة يمكن لسميتي أن يحضر. إنني في الحادية والعشرين يا أبي وأعرف كل شيء عن المزرعة التي قضيت فيها عمري».

«لاأشك في قدرتك، لكنك تعرفين مدى خسارتنا بسبب عواصف الشتاء، وأسعار المواشي. ولولا ارتفاع قيمة الأراضي لما استطعت الحصول على قرض آخر من البنك. إن فريد لولور يعرفك جيداً ولو ترك الأمر له لعهد إليك بإدارة المزرعة».

وعند هذا الحد لم يستطع الأب مواجهة نظرة ابنته، فحوّل نظره إلى قدمه

المدلاة في الهواء، واستطرد قائلاً:

«يقترح البنك أن يعين شخصاً يدير المزرعة، إلى أن أصبح أنا في حالة تمكنني من أن أتولاها بنفسي».

فجزت كايبي بأسنانها على شفتيها لتخفي انفعالها، وجالت بنظرها بين البنطلون الأنيق الذي كانت ترتديه وحذائها الطويل وقالت:

«هل هذا بسبب أنني امرأة؟ لو كان جوني موجوداً لاختلف الأمر أليس كذلك؟»

فردّت الأم قائلة:

«لا داعي لشعورك بالمرارة يا عزيزتي، إنه الواقع».

«لا بدّ وأنّ دعاة تحرير المرأة يعرفن ما هن بصدده».

وحاولت كايبي أن تضحك، لكن صوتاً مريراً اندفع من بين شفتيها بينما اتجهت نحو النافذة والحزن يرتسم على وجهها. غير أن والدها قال لها:

«لو كان هناك أمل في استرداد صحتي في المنزل لما تقدموا بفكرتهم. فعليك مواجهة الواقع يا كايبي. فساعتان بالسيارة ليستا بالمسافة الهينة في حالة أي طارىء يجدّ في الجو».

«لكنك الرئيس الوحيد الذي أدار أنكور بار ولا أعرف كيف أتلقى الأوامر من أحد غيرك. ألا تستطيع إقناع السيد لولور بأن...»

«إنه يعرف رجلاً من أوغالالا يتمتع بقدرة وخبرة كبيرتين. وقد طلبت منه أن يستدعيه ويرسله إلينا. إني متأكد من أنّ في استطاعتي الاعتماد عليك في أن تسير الأمور هيّنة وليّنة بالنسبة إليه».

إلاّ أن كايبي لم تحاول إخفاء شعورها بالمرارة لأن ارتباطها بأبيها لا يدع مجالاً لاخفاء شيء عنه. فاتجهت نحوه بكبرياء وقالت:

«أتمنى أن أتناول الأمور بشجاعة الرجال؟ يمكنك الاعتماد عليّ يا أبي مثل عهدك بي دائماً».

فابتسم الأب وقال:

«كنت متأكداً من ذلك، لكني أشعر باطمئنان أكبر عند سماعي ذلك منك الآن».

وهنا دخلت الممرضة الغرفة وهي تحمل صينية العلاج في يدها وقالت:

«حان الوقت مرة أخرى يا سيد غيلمور».

ونظرت إلى كايبي ووالدتها نظرة توحي إليهما بأن يتركا الغرفة.

«سأودعك الآن يا أبي لأصل إلى المنزل قبل وصول مارك».

واقتربت كايبي من أبيها لتقبله، وبعد برهة قالت:

«متى أتوقع وصول ذلك الرجل القادم إلينا؟»

«قال فريد إنه سيحاول إرساله في أوائل الأسبوع».

فتعجبت كايبي ثم ابتسمت وقالت في نفسها إن لديها خمسة أيام لتجهز كل شيء. ووعدت والدها قائلة:

«سأحضر مع مارك يوم الأحد».

ثم تبعت والدتها إلى الخارج. كانت كايبي دائمة الاعجاب بوفاء أمها لزوجها، ورأت بعينيها أثر ذلك الحب في الأيام الأربعة التي مرت منذ الحادث. وفعلاً تغيّرت ملامح لوسيل غيلمور الهادئة عندما التفتت إلى ابنتها قائلة:

«تعرفين يا كايبي أن والدك لم يكن في موقف يسمح له بالجدال مع البنك».

فردّت الفتاة قائلة:

«أفهم ذلك غير أنني لا أرتاح إليه».

فتنهّدت الأم ونظرت إلى ابنتها نظرة اعتذار وقالت:

«في الواقع أنا مسرورة لهذا الأمر، فلم يرق لي أن أراك تتحملين هذه المسؤولية وحدك، وعلى الأخص في وقت تكثر فيه المشاكل».

«أمل أن تنفرج كل الأزمات يا أماه. اهتمي أنت بأمر أبي واتركي المزرعة ورئيسها الجديد لي».

«كنت قلقة عليك طوال هذه السنين لتشبهك بالصبية في بعض الأمور، والآن

وقد اشتغل جوني في السكة الحديد بدلاً من اشتغاله بالمزرعة. يمكننا أن تشعر بالسعادة وعلى الأخص حين نراك الآن تنتهجين هذا الطريق الصحيح الذي تسيرين فيه. فعندما ينتهي كل شيء ويعود جوني إلى المنزل...»

وهنا احتبس صوت الأم فسكتت. وضحكت كايسي بنفس الغصة التي تمتزج بصوت أمها، فكل منها لا تستطيع الكلام عن أهم أمر تعيشانه وهو ذلك المريض في المستشفى الذي يعاني من كسر في فخذه.

تبادلت لوسيل وابنتها القبلات ووعدتها الأم في شيء من التردد بأنها ستعود معها ومع مارك إلى المنزل عند زيارتها للمستشفى يوم الأحد. وهنا شعرت كايسي بأن أمها تتنازعها رغبتان: رغبتها في البقاء بجانب زوجها، ورغبتها في البقاء مع أولادها. كما أيقنت كايسي بأنه بالرغم من مظهر أمها الخارجي الذي ينمّ عن رقة أنوثتها، فهي في قرارة نفسها امرأة قوية، ولا بدّ أنها ناقشت الموضوع مع والدها واتفقا عليه. فلا حاجة لكايسي أن تثنيها عن عودتها للمنزل. فإن بال الوالدين سيهدأ عندما تعود لوسيل إلى المزرعة مع أولادها.

عندما غادرت كايسي المستشفى راودتها فكرة طارئة وهي أن تذهب إلى نورث بلات لمقابلة أخيها الأكبر مرة أخرى وترجوه العودة إلى المزرعة ومعاونتها في هذه الأزمة الجديدة. لكنها تذكّرت إصراره على رفض اقتراحها. فقد حاول جون منذ صباه تلبية رغبة أبيه ويتعلّم الزراعة حتى يتولّ شؤون المزرعة في يوم من الأيام. إلاّ أنه بعد الانتهاء من دراسته التحق بالجيش. وفي أثناء خدمته عبر البحار كتب لكايسي يقول إنه قرر ألاّ يعود للعمل مع أبيه. وحين انتهت خدمته العسكرية في نهاية صيف العام الماضي سرعان ما أخطر والديه بأنه قبل وظيفة في نورث بلات مع شركة يونيون باسيفيك للسكك الحديدية.

هنا شعر والداه بخيبة أمل كبيرة في ابنهما، وابتلعا مرارة الخبر مع كل المتاعب

التي كانا يعانيان منها. غير أن كايسي شعرت بألم والدها عندما ترك ابنه الأكبر يبني مستقبله بنفسه، ومع ذلك تمنّت أثناء تناولها الغداء مع أخيها أن تقنعه بالعودة ولو مؤقتاً، ومع أن جوني كان متعاطفاً معها غير أنه رفض طلبها والخجل يغمر وجهه قائلاً:

«لقد حسمت الأمر، وأعرف أنّ أبي لن يقف في طريقي، وكم أشعر بالذنب وأنا أخذله، إذ أعرف كيف كان يعتمد عليّ. فإذا عدت الآن، فإنني أحيي فيه الأمل مرة أخرى. وفي الواقع يا كايسي أنت تفكرين في المزرعة أكثر مني».

إلاّ أن العبارة التالية التي قالها كانت هي التي منعتها من الاتصال به ثانية بخصوص الشخص الذي سيصل ليتولّ المزرعة. إذ قال جوني ليحسم الموقف:

«إذا واجهتك أي صعوبة يا أختي يمكنك أنت وأبي أن تستأجرا شخصاً أكثر خبرة مني».

لذا كانت رحلة عودتها إلى المزرعة خليطاً من القلق والغضب، فإن فكرة وجود أبيها في فراشه بالمستشفى لمدّة ستة أسابيع في الوقت الذي كانت المزرعة في أشد الحاجة إليه، تثقل على صدرها كما تثقل عليه ثورتها حين تفكر أنّ شخصاً غريباً سوف يتولّ أمر مستقبل العائلة.

٢ ـ هواء الشمال البارد

على بعد ثلاثة أميال من المزرعة رأت كايسي وهي تقود سيارتها، سيارة نقل تخرج من مزرعة سميث. واستخدمت السيارتان آلة التنبيه في وقت واحد، بينا هدأت كايسي من سرعة سيارتها حتى توقفت وأنزلت زجاج النافذة، وحيّت سميتي الذي قفز من الشاحنة وسألها:

«هل أنت عائدة لتوّك من المستشفى؟»

قالها وهو يرفع قبعته ليمسح العرق عن جبينه وهو يستند على السيارة. فأومأت كايسي برأسها وتطلّعت إلى الوجه الذي لفحته حرارة الشمس، وبدت على ملامحه وسامة الشباب والاقبال على الحياة. وكانت عيناه بنيتين وفيهما بريق عجيب، وشعره بني اللون طويلاً وغزيراً بحيث يتدلى إلى ما تحت أذنيه ويختلط بسوالفه. طويلاً بحيث يتمشى مع الموضة وقصيراً بحيث لا يثير غضب أبيه. سميتي أو على الاصح دون سميث، هو الابن الوحيد لروبرت و جو سميث وهما أقرب جيران آل غيلمور، وكان سميتي في الثالثة والعشرين من عمره، أي في نفس سن جوني شقيق كايسي الأكبر وكانت كايسي منذ طفولتها تتبع الصبيين أينما ذهبا حتى أصبحت في السابعة عشرة من عمرها. وفجأة بدأ سميتي يهتم بها لانهما يشتركان في حب الحياة الريفية والرياضة والحيوانات.

ابتسمت كايسي له وظهر عليها حبها لأبيها وفخرها به حين قالت:

«والدي في تحسّن، لكنه مازال يشعر بالألم. إلاّ أنه لا يشكو من شيء مطلقاً».

فقال لها سميتي:

«سنذهب إليه يوم الأحد...وكيف الحال في مزرعتكم؟»

«انكسرت المضخة عند البئر رقم ١٠ وحاول سام إصلاحها لكنه لا يفهم شيئاً في المحركات، ففكّرت أنه لو...»

«لو أحضر أنا لأفحصها؟ بالتأكيد سأحضر، أعطاني أبي حرية الحضور إلى مزرعتكم في أي وقت تحتاجون فيه إليّ. هل نجحت في إقناع جوني بالرجوع للمزرعة؟»

«لا...وليس هذا كل شيء، فإن فريد لولور من البنك يدبّر أمر إرسال رجل ليدير المزرعة إلى أن يقف والدي على قدميه».

فأبدى سميتي دهشته من هذا الخبر، خاصة وأن معرفته الطويلة بكايسي جعلته يشعر بأثر هذا النبأ عليها. وأضافت كايسي قائلة، وقد قطّب جبينها:

«إنهم لا يثقون بالمرأة».

فداعبها سميتي قائلاً:

«ستتلقى صغيرتي كايسي، التي تعتمد دائماً على نفسها، أوامرها من رئيس كبير!»

فرمقته كايسي بنظرة حانقة بينا تمادى هو في مداعبتها فمدّ يده ولمس برفق النمش المرتسم على أنفها ثم انحدر بيده ورفع ذقنها وأدخل رأسه من نافذة السيارة وهو يقول:

«إني مسرور لذلك، إذ لا أريد لحبيبتي أن تربط نفسها بالمزرعة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم طيلة الصيف».

وبدلاً من فرحتها لتصريحه هذا، لم تتحمّل كايسي فكرة وجود شخص آخر غريب عن عائلة غيلمور يتولىّ مزرعة أنكور بار. لذا غابت عنها روحها المرحة وهي تفكر في هذا الموضوع وقالت:

«ماذا يكون شعورك لو حضر شخص وأخذ يملي عليك أوامره وأنت في مزرعتك؟ لكنك لست امرأة، لذا لن يحدث لك ذلك».

«لا تعتبري المسألة إهانة شخصية لك».

سبق لسميتي أن استمع إلى كايسي وهي تناقش موضوع المساواة بين الجنسين، وشعر أنها ستبدأ في إلقاء محاضرة عن تلك الفروق، لذا قال لها:

«بالطبع لن يدوم ذلك الحال إلى الأبد».

لكنها عتبت عليه قائلة:

«كنت أتوقع أن تفهم موقفي».

«إنني أفهمه، لكن لا فائدة من السخط على شيء لا يمكن تغييره... بينما كنت في طريقي للمرعى الغربي اليوم رأيت رؤوس الماشية العشرة التي فقدت منك وهي مختلطة مع قطيعنا الموجود هناك».

فتنهدت كايسي وقالت وهي تتنفس الصعداء:

«هذا معناه أن السور قد انهار في مكان ما، إن الماشية قد تمّ العثور عليها ولم تسرق كم كنت تتوقّع».

وسرعان ما قال لها سميتي:

«سأقابلك هناك غداً لنفرز الماشية معاً».

«أشكرك، إذ أريد أن يكون كل شيء على ما يرام عندما يحضر هذا الرجل».

«ومن هو؟»

وبسبب ضيق كايسي من معرفة التفاصيل، هزّت كتفيها في غير اكتراث وقالت:

«شخص من أوغالالا».

ثم أضافت قائلة:

«يحسن بي الانصراف الآن لأصل إلى المنزل قبل مارك».

ونقر سميتي على السيارة بيده وقال:

«مرّ الباص منذ نصف ساعة، وبالمناسبة، هل مازال موعدنا مساء السبت القادم؟»

«سأضطر للذهاب إلى سكوتسبلاف مع مارك، فما رأيك في الحضور لمشاهدة التليفزيون أو أي شيء آخر؟»

قالت كايسي ذلك وأدارت السيارة وخرجت بها إلى الطريق العام بينما لوّح لها سميتي بموافقته على فكرتها.

وعلى بعد ميلين من مسيرتها، انحرفت كايسي إلى الطريق الجانبي المؤدي إلى منزل المزرعة. وجالت بنظرها عبر التلال المحيطة بالمكان، وعبر البراري المغطاة بالأعشاب التي أخذت تتغيرّ من اللون الربيعي الأخضر إلى اللون الأصفر، كما لاحظت اللون الأحمر النحاسي الذي يميّز جلود الماشية. وكانت التلال تمتد عبر الأفق يتخلّلها عدد من طواحين الهواء الشامخة. وتابعت كايسي نظرها نحو منزلهم القابع في حضن الجانب الشمالي، في حمى التلال التي تحميه من لفح هواء الشمال البارد.

وعند سماع صوت اقتراب السيارة خرج كلب من تحت الشرفة الخشبية. شعره أشعث يهز ذيله من فرط السرور. كان شيب يعتبر عضواً في الأسرة منذ أن دخل عليها وهو جرو صغير. فاندفع بثقله نحو كايسي التي كان يعتبرها أحب أعضاء أسرته.

وظهر مارك على الشرفة بينما راحت كايسي تحيي شيب الذي ملأه قدومها بالفرح في محاولة لتهدئته. وابتسمت للصبي الذي كان يلبس بنطلوناً يصل إلى أعلى كاحليه، مما يدلّ على مدى الطول الذي وصل إليه فجأة أثناء هذا الربيع. وكان قميصه مفتوحاً وتظهر منه ضلوعه التي برزت من صدره. وكان مارك يشبه أمه بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين، كما بدا عليه أن طوله سيصل إلى ستة أقدام مثل أبيه أما الآن فهو في مثل طول كايسي.

«ألم يحن موعد عودتك بعد؟»

قالها مارك بصوت متبرّم تظهر فيه نبرة الصبي الذي لم يكتمل وتحوّل

صوته إلى صوت الرجال. ثم ألقى بنفسه على أحد مقاعد الشرفة.

«إنني أموت جوعاً. ألا يمكننا أن نذهب للمدينة لتناول فطيرة؟»

لكن كايسي تجاهلت طلبه المستمر للطعام وسألته:

«هل انتهيت من أداء كل أعمالك؟»

«كلا، عدت لتوي إلى المنزل».

«قال سميثي إن الباص مرّ منذ نصف ساعة، مما يعني أنه كان لديك الوقت الكافي للانتهاء من التهام البسكوت الذي أرسلته السيدة باركر وشرب نصف غالون الحليب الموجود بالثلاجة، وكلّها كافية لتعطيك القوة اللازمة للقيام بأعمالك».

فهزّ كتفيه وهو يلبس حذاءه وقال:

«كنت جائعاً. لكن، كيف حال أبي؟»

«أعتقد أنه أحسن حالاً».

«هل من الضروري الذهاب للمدرسة غداً؟ ألا يمكنك اصطحابي معك لزيارته وكتابة اعتذار إلى المدرسة؟»

«غداً يوم الجمعة يا مارك، ويوم واحد لن يضيرك. كما أن الأربعاء القادم هو آخر يوم قبل العطلة الصيفية».

ثم صعدت الدرج إلى الشرفة وقالت له:

«إسرع بإنهاء أعمالك».

وظل مارك يتمتم مظهراً امتعاضه، وهو ينزل الدرج متجهاً نحو المباني الثلاثة التي كانت تكوّن مع المنزل مجموعة منشآت المزرعة.

«لا تنس أن تحضر السرج الليلة لتنظفه».

ثم دفعت الباب وفتحته لتدخل إلى المنزل.

وجدت كايسي ابريق الحليب الفارغ والكوب الذي يحمل آثاره جنباً إلى جنب على طاولة المطبخ بين فتات البسكوت المبعثر حولها. فهزت رأسها معبّرة

عن ضياع أملها في إصلاح أخيها. وأخذت تنظّف المائدة وهي تتمنى عودة أمها إلى المنزل، فبالاضافة إلى كراهيتها للطهي والتنظيف كانت تكره أشدّ الكراهية غسل الصحون. وكانت كايسي وأخوها محظوظين لمساهمة الجيران في إهدائهما الأطعمة المطهية والحلوى بعد وقوع الحادث لأبيها يوم الاثنين، ورحيل الأم إلى سكوتسبلاف لتكون بجانب زوجها بعد العملية التي أجريت له لوضع مسمار في فخذه. إلاّ أن مارك كان قد التهم ما تبقّى من هدايا الجيران.

ولما حان وقت العشاء سأل مارك أخته كايسي بتذمر:

«متى ستعود أمي إلى المنزل؟»

فردّت عليه:

«لن تعود قبل يوم الأحد».

«إذاً علينا الذهاب إلى المدينة لتناول العشاء».

والتقت نظراتهما، وبحركة واحدة قاما وقال مارك:

«إذا تعاونّامعاً، يمكننا تنظيف المطبخ في عشر دقائق والوصول إلى المطعم بعد ساعة».

٣ ـ مجيء الرجل المتعجرف

لوّحت كايسي مودعة مارك وهو يمتطي حصانه إلى حيث يستقل سيارة المدرسة. وكان مبدأ مارك ألاّ يمشي إذا كان في مقدوره الركوب. كما كان يحصي الأيام حتى يصل إلى سن السادسة عشرة، حيث يسمح له باستخراج رخصة القيادة حتى لا يضطرّ لركوب سيارة المدرسة. وتنهّدت كايسي وهي تفكر بأن ذلك اليوم ليس ببعيد.

سام ولفر العامل المساعد في المزرعة منذ عشر سنوات بدأ في تثبيت حدوة للحصان. ورغماً عنها نظرت كايسي إلى الجواد المربوط في عامود قريب.

كان هو الحصان إينغان جو الذي أسقط والدها من فوق ظهره. وأخذت كايسي ترقب الجواد من زاوية خلفية وقد أعجبت بكمال تكوينه وجمال عضلاته. وكان جلده البني الغامق يلمع في شمس الصباح، بينما أخذ يهز ذيله الأسود ليهش به الذباب من حوله. وعند سماع وقع حذائها الطويل على الأرض المغطاة بخليط من الرمل والحصى أدار الحصان وجهه في اتجاهها. ولم تستطع أن تسيطر على الرجفة التي سرت في جسمها عندما نظرت إلى وجهه الأبيض الذي يتخلله قليل من اللون البني على الصدغين. وكان والدها يسمّيه المتقلب وهي تسمية وافقت هي عليها خاصة عندما نظرت إلى عينيه ووجدت أن إحداها بنّية والأخرى زرقاء.

ثارت أعصابها عندما التقت نظراتها بنظرات الحصان. فطالما ناشت أباها في أمر بيعه ولكنه عارضها بحجة أنه حصان ممتاز لرعاية قطيع المواشي، وهي

حقيقة لم تنكرها كايسي، فقد كان إينغان جو أحسن جواد في المزرعة. وكان الجلوس فوق سرجه متعة وهو يقوم بعمله. أما فيا عدا ذلك فلم تكن كايسي ترتاح إليه، إذ لم يكن من السهل التنبؤ بما قد يصدر عنه، ولا يمكن الاعتماد عليه في القيام بأبسط الأعمال.

وفي يوم الحادث حاولت كايسي اقناع والدها بأخذ جوادها للاطمئنان على حال البئر القريب من المنزل، إذ إنّ جواده المفضل كان يشكو من العرج، ومع ذلك صمّم على اعتلاء إينغان جو الذي تسبب بوقوع الحادث الاليم.

وبصعوبة نفضت كايسي عنها تلك الذكرى الأليمة وأسرعت نحو جوادها الواقف على أهبة الانطلاق. وكان لون جلده الأصفر الغامق يبرز سواد عرفه وذيله وأسفل أقدامه. وتبعها الجواد وهي تمسك لجامه وتقوده خارج الحظائر نحو مقطورة الخيول. وكان الكلب شيب جالساً بجانب السيارة وهو يدق بأقدامه بحركة رتيبة متلهفة للانطلاق. وبمجرد أن ربطت الجواد بعناية في المقطورة أعطت كايسي الاشارة للكلب لكي يركب في الجزء الخلفي من السيارة. وبسرعة لبّى أمرها بدون حاجة لأن تكرره.

وعندما قفزت كايسي داخل السيارة أطلقت آلة تنبيهها مرتين لتخبر سام بأنها ستخرج.

كان مارك يسمي سام،سام الصامت. ولم يكن أحد يعرف الكثير عنه، فلم يظهر أي اهتمام بأسرته. وكان قد رفض اقتراح الأسرة بمبيته في الكشك الصغير، وفضّل النوم في مقطورة شبه محطمة وضعها بجوار إحدى البحيرات الموجودة في المزرعة، والتي يمكن وصفها بأنها مستنقع كبير. ولم يكن سام يتكلّم كثيراً، ومن هنا جاء اسمه. غير أنه عندما يتكلم كان لا بدّ أن يقول شيئاً هاماً أو مفيداً. وكان رأيه في النساء يتفق مع رأي أهل غرب أمريكا الأولين، لذا كان يعاملهم بمنتهى الاحترام والأدب. وكثيراً ما شعرت كايسي أن سلوك سام نحو والدتها كان يقرب من العبادة. كما شعرت أنه من بقايا فئة من

الرجال الذين تركوا بصماتهم على الحدود الغربية للولايات المتحدة. وكان سام مديد القامة، نحيل الجسم، خجول الطبع، كما كان ملماً إلماماً تاماً بكل خفايا الطبيعة من نبات وحيوان، لذا علّم كايسي أسماء النباتات التي كانت تنمو في ساندهيلز، كما عرّفها بفوائد هذه النباتات بالنسبة إلى الهنود الذين جابوا تلك المناطق في وقت من الأوقات. وقصّ عليها كل ما يعرفه عن سيطرة الثيران البرية على هذه البراري بفضل عددها الكبير الذي كان يقرب من الملايين.

تذكّرت كايسي كيف كان سميتي و جوني يداعبانها وهي صغيرة ويقولان لها إن سام يتيم من أبناء القبائل الرّحل التي هاجمها الهنود وأنهم ربّوه كأحد أبناء الهنود.

وقد ساعد شكل سام المهيب ووجهه الذي لا يدل على سنه، ساعد كايسي على تصديق هذه القصة حتى قال لها والدها أنها قصة لا يمكن أن تحدث، ومع ذلك كانت تلك هي الصورة التي بدا بها سام وولفر لكايسي وسيبدو دائماً بها، إنه ينتمي إلى عهد مضى وإلى نوع آخر من الرجال.

وكادت كايسي أن تصل إلى بوابة مرعى بيرنت هولو عندما شاهدت التراب المنبعث من سيارة سميتي وهي تقترب، وعندما أوقف سيارته بجانب سيارتها، كانت كايسي قد حلّت جوادها تالي وأنزلته من المقطورة وأخذت تفتح البوابة. ومثل كايسي لم يضيع سميتي وقتاً في إنزال حصانه وقيادته عبر البوابة. فقد آمن كل منهما بأن للعمل أولويته ثم يليه الحديث، وبمجرّد قفل البوابة اعتلى كل منهما صهوة جواده وأخذ الجوادان يطويان الأرض بينما هزّ شيب ذيله وهو يمرح أمامهما.

وبعد أن سارا بمحاذاة السور لمسافة معينة، بدد سميتي الصمت بينهما متسائلاً:

«ماذا قال مارك عندما علم بمجيء الرجل الجديد؟»

«أنت تعرف مارك جيداً، فإن أكبر كارثة في حياته وأهم ما يشغل باله هو

اعتقاده بأنه لن يزداد طولاً».

وضحكت كايسي، لكن سرعان ما ظهرت على جبينها تقطيبة لا شأن لها بشمس الصباح الساطعة وقالت:

«بدا عليه الارتياح لأن أعماله ستقل أثناء الصيف بقدوم الرجل، وأعتقد أنه ردة فعل طبيعي لفتى في مثل سنه».

وعاد سميتي يقول مداعباً:

«هكذا تتكلّم السيدة العجوز وهي تعبّر عن حكمة الأيام والسنين!»

فاصطبغ وجه كايسي بحمرة الخجل وهي تشعر بما كان في صوتها من نبرات تنم عن السيطرة. وأضفت هذه الحمرة على وجنتيها وهجاً جميلاً من الأنوثة. وكان شعرها مكشوفاً للشمس التي اضفت على اللون البني بريقاً ذهبياً. وداعب النسيم شعرها القصير فلامست خصلات منه وجهها وكأنها تقبله. وكان حاجباها طبيعيين، لم تمس قوسيها معدات التجميل. أما عيناها اللتان كانتا أحياناً تعكسان إمارات الغضب فقد بدتا اليوم دافئتين يغلب عليهما الخجل. وقد زاد من مظهر البراءة البادية عليها نقط النمش المرتسمة على أنفها ووجنتيها. وبالرغم من صغر فمها الذي يتناسب مع حجم بقية قسماتها فقد كانت شفتاها مكتنزتين. وأشارت كايسي بيدها قائلة:

«ما هي الفتحة الموجودة في السور».

وكانت أمامها تماماً شجرة جرّدها برد الشتاء، وحر الصيف الجاف، من أوراقها وقشور جذعها الذي أصبح بلونه الكالح يبرز لون البراري الأخضر وقد سقط فرع من الشجرة فجذب معه جزءاً من السور أثناء سقوطه.

وبسرعة ثبّت كل من كايسي و سميتي حبالهما حول الفرع، وجذباه بعيداً عن السور. ثم نظّفا المكان من بقايا الأسلاك الشائكة المحطمة. وعندما امتطيا جواديهما ودخلا من فتحة السور أشار سميتي إلى الجهة التي رأى فيها ماشية أنكور بار.

وكانت التلال ممتدة أمامها توحي لمن يراها أنها منبسطة، إلا أن المنخفضات التي تتخللها كانت غائرة بحيث يمكنها إخفاء أي بقرة كبيرة أو حتى أي جواد براكبه. وفي أماكن متفرقة كان عشب البراري قد تآكل من جانب التل بحيث تعرت الأرض الصفراء، وكانت الطيور تشدو وتحلق حولها.

وكثيراً ما سمعت كايسي بعض الناس يصفون المكان بأنه مهجور، بسبب السماء المفتوحة، والتلال الممتدة عبر الأفق. إلا أن كايسي سمعت بفرح همس الرياح، وتغريد الطيور، ووطء حوافر جوادها وهو يخطو بين الأعشاب والرمال. وكانت كايسي تحب الاستيقاظ مبكرة لترقب الشمس وهي تبرز من بين السحاب، كما ترقبها وهي تتوارى وراء الأفق. كان هذا موطنها الذي لم تشعر فيه بالوحدة، وكيف تشعر بالوحدة وحولها أشخاص تحبهم ومناظر جميلة من صنع الخالق!

وعندما وصل الفارسان إلى قمة التل رأيا قطيع البقر الصغير وهو يرعى في الوادي الخصيب. ورفعت الماشية رؤوسها ببطء عندما اقترب كل من كايسي و سميتي منها، بينما مشى شيب وراءهما في صمت فاتحاً فمه فيما يشبه الابتسامة السعيدة، وأخذ يلهث، وجال بعينيه البراقتين ليفحص الماشية منتظراً إشارة من سيدته لجمع القطيع. وقالت كايسي برفق.

«أرى سبع بقرات عليها علامة آنكور بار».

وأومأ سميتي لها بموافقته، بينما هما يطوفان حول القطيع ورأيا ثلاث بقرات أخرى ترعى بعيداً عن المجموعة الكبيرة. وأشارت كايسي بيدها نحوها فاندفع شيب مسرعاً ليقوم بجمع البقر. وكان الكلب كالدوامة الهوائية وهو يجري ويقفز من بقرة إلى أخرى حتى تجمعت معاً في دائرة واسعة. فوخز كل من كايسي و سميتي جواده ليندفع إلى الأمام لكي يفصلا بين بقر آنكور بار والبقر الآخر. وظل شيب جالساً في سكون على الأعشاب بلا حركة إلا عندما يشعر أن إحدى بقرات آنكور بار تحاول أن تنضم للبقر الآخر.

«أقسم بأن هذا الكلب يستطيع قراءة علامات البقر».

قالها سميتي عندما انتهى الكلب من فصل آخر بقرة عن القطيع الآخر، وسحب الجميع البقرات العشر نحو الفتحة الموجودة في السور.

وقالت كايسي مبتسمة للكلب وهو يجري بجوار الماشية:

«أحياناً أشعر بشيء غريب عندما أنظر إليه».

وكانت رحلة العودة إلى السور أسرع من رحلة الذهاب. فبسرعة عادا مصطحبين معهما ماشية مزرعة غيلمور، ثم أخذ يصلحان الأسلاك الشائكة حتى عاد السور كما كان.

وبينما أخذ سميتي يعيد معدّاته إلى جرابها بالسرج، قالت له كايسي وهي تدعوه لتناول شيء من المرطبات:

«لدي بالسيارة بعض عصير الليمون».

فقال وهو يجفّف العرق عن جبينه بظهر يده:

«إني حقاً بحاجة لتناول شيء منه».

ثم أضاف:

«هيا نتسابق».

ولم تهتم كايسي بتلبية دعوته شفوياً، بل أمسكت بجوادها وقفزت إلى السرج ووراءها مباشرة جاء سميتي على ظهر جواده. وسارا في طريقهما إلى بوابة المزرعة. وعندما توقفا كانت قد سبقته بمسافة طويلة. وقالت والفرحة تغمرها:

«على الخاسر أن يقوم بتلطيف حرارة الجياد».

فأخذ منها سميتي اللجام وقال:

«لا مانع لديّ، طالما يتولّ الفائز تقديم عصير الليمون».

وبعد دقائق انضمت كايسي إليه وقدمت له كوباً من الليمون البارد، وقال سميتي بعد برهة:

«كنت أقص على أبي ليلة أمس، الترتيبات التي اتفق عليها والدك بخصوص الشخص الذي سيدير المزرعة أثناء إقامته في المستشفى. وعندما طلب مني المزيد من التفاصيل التي لم أستطع أن أمده بها، اتصل تليفونياً بالمستشفى. أتعرفين اسم الشخص القادم إليكم؟»

«كلا، ولا يهمني معرفته».

قالتها وهي تحاول ألاّ تدع وجهها يعبّر عما يجول بنفسها.

«اسمه فلينت ماكاليستر».

وقفل سميتي برهة لتعي كايسي الاسم جيداً. واستمرت في سيرها وهي تنظر أمامها وكأنها لا ترى شيئاً، كما أنها لم تعلّق على عبارته، ومضى يقول:

«إنك تعرفينه، أليس كذلك؟»

«لا أستطيع القول أنني أعرفه».

وكان جوابها بارداً بحيث تعمّدت أن يشعر بتأففها من هذا الموضوع.

«إنه ينتمي إلى شركة ماكاليستر للأراضي وشركة المواشي في أوغالالا. ولقد سمع بهم جميع مربي المواشي في الغرب الأوسط».

فرفعت كايسي أنفها معبّرة عن كبريائها واحتقارها.

«آه، تلك الشركة!»

فعاد سميتي للموضوع بإصرار وقال:

«لا تحاولي اقناعي بأن الخبر لم يكن له وقع قوي عليك، فلا بدّ أنك سمعت أنه كان في استطاعة ماكاليستر الكبير وابنه أن يستوليا على منطقة ساند هيلز كلها ويقتنيا أكبر امبراطورية للمواشي في الولايات المتحدة في سنوات الجفاف. ومع ذلك بذل الأب ما في وسعه لمساعدة أصحاب المزارع. وبلغ به الأمر أن قدّم لهم القروض حتى بعد أن أصبح عاجزاً عن ذلك. وكاد هو نفسه أن ينهار كما انهار غيره. إن فلينت ماكاليستر هو حفيد ذلك الرجل العظيم».

ولاحظ سميتي تعبير الاعجاب الذي حاولت كايسي ألاّ يظهر عليها

وتابع كلامه قائلاً:

«أنت تذكرين أنه منذ سنوات اشترك فلينت ماكاليستر في برنامج تبادل زراعي، وقضى سنوات في استراليا يدرس طريقة الناس في إدارة المزارع».

«أذكر ذلك ولا بدّ سيصدم عندما يكتشف أنه سيتولىّ هنا إدارة مزرعة هزيلة قوامها ستة عشر ألف فدّان فقط».

«يا إلهي، يا كايسي! ألا تكفّين عن هذه المرارة، وتفكرين في الفرصة التي ستسنح لك؟ فكري فيما ستتعلمينه من هذا الرجل أثناء وجوده هنا. وهناك إشاعة تقول إنّ الأب سيعتزل هذا الشتاء، وسيجعل فلينت يتولىّ إدارة الشركة ويمنحه السلطة الكاملة عليها».

«كيف تكون بهذا الغباء؟ ألا ترى كيف سيسيطر علينا هذا الرجل العظيم بعجرفته وكبريائه؟ إنك أمام فتاة ترفض أن يأمرها ذلك الرجل الذي يدّعي العلم بكل شيء».

فضمّ سميتي شفتيه بجدّية إذ أيقن ألاّ فائدة من الجدال معها. ففي إمكانها أن تكون عنيدة، الأمر الذي لا يؤدي إلاّ إلى مزيد من الكلمات الصارمة. لذا تعمّد أن يسحب جواده إلى مقطورة السيارة ويحمّله عليها. وفهم من الأصوات التي كان يسمعها أن كايسي كانت هي أيضاً تحمّل جوادها على مقطورة سيارته. وسرعان ما قال لها باقتضاب قبل أن يركب سيارته:

«سأتبعك إلى المزرعة لآخذ المحرك المعطل».

فأومأت كايسي برأسها توافقه على اقتراحه، وهي تدفع المزلاج الذي يغلق باب المقطورة.

٤ ـ التفاحة المهترئة

فلينت ماكاليستر، فلينت ماكاليستر، فلينت ماكاليستر!

شعرت كايسي أنها ستنفجر إذا سمعت ذلك الاسم مرة أخرى. فقد كان الاسم على فم كل من زار والدها في المستشفى أثناء عطلة نهاية الأسبوع. ولاحظت أن سرور والدها يتزايد كلّما فكّر في أن ذلك الرجل سيدير مزرعته، وكأنه يفخر بأن شخصاً معروفاً ومحترماً مثل فلينيت ماكاليستر سيكون رئيساً في أنكور بار. وممّا زاد في رضاه ردود فعل أصدقائه وزملائه المزارعين وحماسهم لوجوده. أما كايسي فقد قززتها نبرات التبجيل التي تسمعها في أصواتهم كلّما ذكروا اسمه. وكانوا يتكلمون عنه وكأنه رئيس الولايات المتحدة ونجم سينمائي مشهور.

فيوم الأحد حضر جوني وسرّ هو أيضاً للخبر، لأنه أنقذه من الشعور بالذنب الذي كان يعذبه.

وكانت كايسي محقّة عندما قررت أن لا فائدة من مناشدة أخيها منع ذلك الرجل من الحضور، لأن جوني كان محبذاً حضوره. وحتى مارك انتابته عدوى المديح في تلك الأسطورة المسماة فلينيت ماكاليستر فقد أتحف كايسي في طريق العودة للمنزل مع أمها بكل القصص التي سمعها عنه. وكانت الأم هي الوحيدة التي لاحظت صمتها وهي تحاول السيطرة على غضبها المتزايد، لكنها لم تسترح لنظرات الوالدة المتعاطفة. فقد تأكدت أن لوسيل

غيلمور هي الأخرى سعيدة بأنّ رجلاً سيحضر لادارة أنكور بار في غياب زوجها.

وكانت كايسي في مكتب والدها صباح ذلك اليوم لتكلّم سميثي بالتليفون بخصوص حضوره لمعاينة المضخة المكسورة المثبتة على البئر رقم ١٠، وقد سميت تلك الغرفة بالمكتب لأنها تضم مكتباً وملفات المزرعة. وكانت الغرفة مخصصة أصلاً لتكون غرفة للطعام لقربها من المطبخ إلاّ أنها لم تستعمل لهذا الغرض، بل أصبحت تلقائياً مكتباً للمزرعة حيث كان جون غيلمور يضع فيها خزانة أسلحته، ويزيّن جدرانها برؤوس الحيوانات التي اصطادها وجوائزها، كما وضع فيها مقعده المريح المفضل. وفي السنوات الأخيرة وضع جون غيلمور سريراً ليستريح عليه أثناء النهار، وذلك بسبب زيادة الأعمال الكتابية وساعات السهر في تلك الغرفة.

ودخلت الأم في اللحظة التي أعادت كايسي فيها السماعة لمكانها. وكانت ذراعا لوسيل محملتين بأدوات التنظيف من مكانس ومماسح ومنافض. ولم تلتفت كايسي لها باهتمام إلاّ عندما أثارت كلماتها انتباهها وأوقفتها عند الباب وهي تقول:

«توجد بعض الملاءات النظيفة والبطانيات على طاولة الردهة، يا كايسي، هلاّ أحضرتها؟»

«لماذا تريدينها؟»

«لكي أغيّر فراش السرير».

ومرت فترة صمت بينما فحصت السيدة غيلمور الفرشة العارية وقالت:

«ما رأيك لو أخذت الفرشة للخارج لتهويتها؟»

ثم أضافت وهي تمد يدها بطريقة آلية:

«يحسن أن تساعديني في نقل خزانة جدتك من البيت الصغير إلى هنا. كما

سنحتاج لسام لمعاونتنا في نقله. أما خزانة الأطباق وأدوات الطهي فيمكننا إزالها من مكانها».

وجالت الأم بنظراتها الفاحصة في أرجاء الغرفة بينما فطنت كايسي إلى معنى ما يحدث. واسترسلت الأم تقول:

«يمكننا تنظيم الغرفة بطريقة ملائمة، بحيث يستطيع أن يضع ملابسه في مكان مناسب».

فانفجرت كايسي قائلة:

«أتعنين أنه سيقيم هنا في هذه الغرفة؟ ولماذا لا يقيم في المنزل الصغير حيث يسكن بقية العمال الأجراء؟ لماذا يسكن هنا؟»

فردت لوسيل غيلمور بصوت هادىء ينطوي على شيء من التأنيب:

«ليس السيد ماكاليستر أجيراً بالمعنى المعروف يا كاساندرا».

وكانت الأم لا تنادي ابنتها باسمها كاملاً إلا عندما تكون غاضبة منها. فقالت الابنة بحدّة تدل على إعتراضها:

«لكن هذه غرفة أبي».

وترقرقت الدموع في عينيها، عندما أيقنت أن ذلك الفلينت ماكاليستر، لم يكن يستولي على مركز أبيها فحسب بل على مكتبه الخاص أيضاً. لذا انسابت كلمات الغضب من فمها، لكن الأم أوقفت سيل كلماتها بنظراتها التي تحمل معاني التأنيب وهي تقول:

«ظننتك تغلّبت على شعورك بالعداء نحوه. فمن حسن حظنا أننا عثرنا على رجل بمثل خبرته وعلمه».

«إنني أمقته».

وخرجت الكلمات كالهمس من بين أسنانها المطبقة من الغيظ، ولم تصدّق أمها ما سمعته فقالت وهي في قمة دهشتها:

«كاساندرا غيلمور!»

وعند سماعها كلمات أمها اندفعت كايسي مسرعة خارج الغرفة، فقد قررت ألا تستمع للمزيد من الحديث عن فلينت ماكاليستر.

نادت كايسي سام ليذهب للمنزل حيث كانت أمها تحتاج إليه ثم استقلّت السيارة وأغلقتها بعنف. وحينما ثارت الرمال تحت العجلات المسرعة، رأت سام وهو يتجه نحو المنزل وقد رفع قبعته احتراماً للسيدة غيلمور، التي ظهرت في الشرفة وهي تحجب الشمس عن عينيها بيدها وترقب كايسي وهي تسرع في الطريق. ولم تنتبه كايسي إلى أنها خرجت إلى الطريق المرصوف بالحصى، أو إلى صوت عجلات السيارة وهي تطحن الأرض متجهة جنوباً إلى الطريق العام. ولم تهدأ ثورتها إلا عندما وصلت إلى أجيت فوسيل بيدز حيث لم يبق منها إلا رماد غضبها المكبوت. وفجأة أوقفت السيارة قرب الجسر الذي يعبر نهر نيوبرازا ثم أدارتها لتعود ثانية إلى المزرعة.

فلينت ماكاليستر! وتصورته في ذهنها وهو يلبس بدلة أنيقة مثل أهل الغرب، ويضع على رأسه قبعة بيضاء أنيقة، ويلبس حذاء طويلاً من الجلد الناعم. ولا بد أنه يلبس رباطاً رفيعاً للعنق يثبته بمشبك مرصع بالماس بزخرفة مميّزة، فقد سبق لها أن سمعت عن هؤلاء الكبار من أصحاب مزارع الماشية، وسمعت عن تفاخرهم بما كوّنوه من ثروات وكم خسروا في نزهاتهم القصيرة في نهاية الأسبوع للاس فيغاس. ولا شك أن والد ماكاليستر رحّب بارساله إلى استراليا لمدة عام حتى لا يبدّد ثروة الأسرة. فقد سمعت عن تصرفات بعض الأحفاد المدلّلين لأصحاب المزارع من الروّاد الأوائل. ولا بدّ أن ذلك الرجل القادم إليهم قد تفنّن في كيفية العبث باسم أسرته. لذلك لا عجب أن يكوّن الناس في الخارج فكرة خاطئة عن الأمريكيين ويتصورونهم قوماً مدّعين يحبون المظاهر، وذلك بسبب أمثال فلينت ماكاليستر الذي يعتبر كتفاحة مهترئة في صندوق

تفاح مرسل إلى الخارج.

وكانت كايسي تقترب من قمة أحد التلال عندما لفتت نظرها سيارة بمقطورة للجياد، وهي تسير بسرعة أقل من سرعة سيارتها. فلم يكن أمامها غير حلّين: إما أن تضغطت على مكبح السيارة حتى لا ترطم بها من الخلف، أو أن تسرع وتتخطاها. وفي اللحظة التي نظرت فيها أمامها لتتأكد من خلو الطريق، أدارت كايسي عجلة القيادة، وداست على البنزين لتضمن المرور بجانب السيارة والمقطورة قبل أن تصل إلى التل التالي. ولم تكن كايسي تشك في قدرتها كسائقة ماهرة، إذ قامت بقيادة جرار المزرعة ثم تدرجت منه إلى سيارة النقل بمجرد أن سمح طول ساقيها بذلك.

وظهرت عليها ابتسامة الرضا عندما مرت بجانب السيارة وتعدّتها بمسافة كافية قبل أن يظهر التل أمامها. وكان صوت الهواء المنبعث من نافذة سيارتها يصم أذنيها ويمنحها شعوراً بالنصر حتى أنها لم تقلل من سرعتها بل زادتها إلى ثمانين ميلاً وهي تنحدر في طريق النزول. وفجأة وبلا سابق إنذار سمعت كايسي دوياً أزعجها، وارتجفت عجلة القيادة تحت يديها وكادت أن تفلت منها...لقد انفجرت اطاراتها. وبكل قواها احتفظت بعجلة القيادة في اتجاه مستقيم، ورفعت قدمها عن البنزين وضغطت على الكابح.

وأخيراً توقفت السيارة. وكانت ذراعاها وساقاها ترتعد من هول الموقف، بحيث لم تقو كايسي على الحركة، بل أسندت رأسها إلى عجلة القيادة وهي تؤنب نفسها على السرعة التي كانت تسير بها محاولة التخفيف عن نفسها بالتفكير في أن لديها إطاراً احتياطياً في حالة جيدة. وفي لحظة فتح باب السيارة بعنف، ووجدت نفسها امام عينين رماديتين لم تر لغضبها مثيلاً. وفي لمح البصر تذكرت السحب القاتمة التي تنذر بالعاصفة، والتي كانت تغطي أحياناً سماء ساندهيلز بلونها الذي ينذر بهدير الرعد.

«أيتها المجنونة! لماذا هذه السرعة؟ هل كنت تحاولين قتل نفسك أم تتعمدين الانتحار؟ النساء أمثالك يتسببن في مضايقة كل سائق عاقل على الطريق».

فثار غضب كايسي وردّت على ذلك الغريب الشرس قائلة:

«شكراً! إنني لست مصابة، كما أنه كرم منك أن تقلق عليَّ وتسأل عني».

«الذي يسأل عادة هو المخطيء...أين الرافعة؟»

«إنني قادرة على تغيير الاطار بنفسي».

وخرجت كايسي من السيارة، ومدّت يدها وراء المقعد لتأخذ الرافعة وهي تنظر بكبرياء إلى الرجل لتتحدى نظراته الساخرة المتعالية التي تكاد لا تصدّق ما ترى. ودارت حول السيارة لتصل إلى الاطار الأيمن الأمامي.

ولم تحاول كايسي اخفاء غضبها عندما سمعت خطواته تتعقّبها. وبسرعة جمعت الآلة الرافعة ورفعت بها مقدمة السيارة، وأخذت تحل الصواميل. ونجحت في حل الصامولة الأولى بيسر، أما الثانية فأبت أن تتحرك، وشعرت كايسي بنظرات الرجل الغريب وهي ترقبها وتحصي حركاتها. وبالرغم منها علت حمرة الخجل وجنتيها وهي تحاول أن تحل الصامولة بلا طائل، حتى كلت يدها من المحاولة الفاشلة برغم مجهوداتها العنيفة.

وقبل أن تمنعه، أبعدها الرجل عن طريقه ليقوم هو بالعمل، ومع ذلك احتجت بغضب وهي تقول:

«في إمكاني القيام بالعملية بنفسي».

فردّ وهو يسخر منها قائلاً:

«هذا ما أراه فعلاً!»

وبسهولة وخبرة فكّ المسمار وقال لها هازئاً:

«إذا أردت المساهمة في العمل، ومساعدتي، احضري الاطار الاحتياطي»

فضمّت كايسي قبضتي يديها بغيظ وهي في طريقها لاحضار الاطار، فما

أثارتها طريقته الآمرة. وعند عودتها وجدت أنه نزع الاطار وبسرعة وضع الاحتياطية في مكانها. ولأول مرة سنحت لكايسي الفرصة لتأمل الرجل الذي فرض عليها مساعدته بدون استئذان، بل بثقة وكبرياء.

كانت قبعته من القش وقد أزاحها إلى مؤخرة رأسه كاشفاً بذلك عن شعر بني كثيف تتخلله خصلات متوهجة من لفح الشمس. وكان جانب وجهه قوياً يتدفق رجولة من الجبهة الملساء إلى الأنف المستقيم ثم الصدغ المربع والذقن ذات العظام المتناسقة. وكان حاجباه بنفس لون الشعر القاتم، أما الحاجب الأيسر فكان مرفوعاً في سخرية واضحة. وكانت عيناه الرماديتان داكنتين بحيث بدتا وكأنهما سوداوان. وكان جلده مصطبغاً بسمرة زادت من شدة بياض القميص الذي يرتديه. وعرفت كايسي في اللحظة التي وقفت بجانبه أنه فارغ الطول: ستة أقدام أو تزيد لذا وصفته كايسي بأنه طويل ونحيل وهي ترقب ظهره بعضلاته القوية وخصره النحيل في بنطلونه البسيط.

أخيراً قام الرجل وقال:

«إليك الاطار السليم».

ثم نزع الرافعة من مكانها وفكّها وأعادها إلى كايسي، وقد بدت على وجهه طيف ابتسامة، وظهرت كسرتان على خديّه يمكن وصفهما لو كانا في أي شخص آخر بأنهما غمازتان. أما في حالته هو، فقد عمّقتا نظرة السخرية المرتسمة في عينيه. وراقبته كايسي وهو يعيد الاطار التالف إلى مكانه في السيارة، بينما أخذت هي تسحب الرافعة في هدوء ممزوج بالغيظ المكبوت والحرج.

وعندما تقاعست كايسي عن إبداء الشكر لمساعدته قال لها:

«لا شكر على واجب!»

فردّت كايسي قائلة:

«إنني لم أطلب مساعدتك».

فلمس قبعته بتحية هازئة وقال في سخرية واضحة:

«هذه غلطتي ولن أكررها ثانية. لكن عليك أن تقودي سيارتك ببطء فقد لا يلازمك نفس الحظ في المرة القادمة».

هنا قفزت كايسي داخل السيارة، وأدارتها بسرعة، وابتسمت باستهزاء في المرآة الجانبية وهي تضغط على البنزين مبتعدة بسرعة.

٥ ـ لقاء على غسل الصحون

بعد أن تركت كايسي مسافة بينها وبين السيارة ذات المقطورة، هدأت من سرعتها وسارت بسرعة معتدلة، فلم يعجبها أن تعترف لراعي البقر الذي أثار غضبها أن انفجار الاطار قد أفزعها ولو قليلاً. وشعرت كأنّ الدنيا ضدّها لمجرد أنها انثى. حتى هو...فقد ألقى عبارة مهينة عن الفتيات الغبيّات. لا عجب إذن أن تقوم المرأة بتلك الحركة التحررية لترد بها على عداوة الرجال.

وعندما وصلت إلى المزرعة كانت كايسي تقود سيارتها بسرعة أقل من السرعة التي تركتها بها. وتوقفت عند محطة للوقود بالمزرعة لتملأ خزان السيارة الذي كاد يكون فارغاً. ورأت سام وهو يحاول تهدئة أحد العجول الصغيرة. وبدا كأنه انتهى من معاونة والدتها في نقل الأثاث استعداداً لوصول فلينت ماكاليستر. وبعد ملء خزان السيارة قادتها كايسي إلى الشجرة الوحيدة الوارفة الموجودة في الفناء، وأوقفتها تحتها. وجاء الكلب شيب يرحب بعودتها بحماس شديد عبّر عنه بحركاته الفرحة بها.

وبمجرد أن وطئت قدما كايسي درج الشرفة في طريقها إلى المنزل، سمعت صوت سيارة أخرى تسير في الطريق المؤدي إلى البيت. ولأول وهلة، حجبت الأتربة التي أثارتها السيارة القادمة الرؤية، بحيث لم تتبينها جيداً وهي تدور حول منحدر التل. ولم يستطع شيب بحاسة سمعه الحادة، أن يتعرف على صوت السيارة المقتربة من المنزل. لذا وقف شعر شيب على ظهره ترقباً، وهو

يتقدّم بشجاعة متحدياً المتطفل الجديد القادم إليهم.

وعندما تعرّفت كايسي على السيارة والمقطورة حاملة الجواد، وضعت يدها على خصرها في حركة كلّها تقزز وغضب، بينما ضغطت على شفتيها بحركة تدل على الصرامة. وتوقفت السيارة أمام المنزل، ونزل منها الرجل الغريب الطويل الذي سبق له أن عاونها في تغيير الاطار ولم يهتم الرجل بتهديدات شيب الشرسة وقالت كايسي باستهزاء:

«لم تكن هناك حاجة لأن تتبعني، فأنا قادرة على العودة للمنزل بدون مساعدة».

فقال الرجل بصوت أجش عميق، لكنه هادىء، مع ما فيه من لهجة الأمر:

«أليست هذه هي مزرعة غيلمور؟»

فردت عليه كايسي بحدّة وتبرم:

«نعم، ولكن إذا كنت تبحث عن عمل فيمكنك أن تعود من حيث أتيت، لأننا لا نحتاج إلى عمال، وإذا احتجنا إليهم فلا نريد استخدام رعاة للبقر من النوع الرخيص».

والتقت نظراتها في تحد صامت بينما ظل شيب يزمجر لوجود الرجل الغريب. وبالرغم من تأجج الغضب الواضح في عيني الرجل الرماديتين، إلاّ أن كايسي عجبت من رؤية بريق من الدهشة في عينيه ممزوج بنظرة كلّها اهتمام وتسلية. وشعرت كايسي كأنها زهرة تحاول أن تمنع أسداً مفترساً من التعرض لطريقها، بكل ما يحمل هذا الشعور من يأس لا طائل من ورائه. فهذا الغريب ليس إلاّ متطفلاً تسلّل إلى مزرعتهم. وسمعت كايسي والدتها وهي تسأل:

«هل سمعت صوت سيارة تقف هنا؟»

وجاء السؤال من الداخل قبل أن تفتح الأم الباب، وقبل أن تجيبها كايسي، رأت لوسيل غيلمور الرجل الغريب واقفاً أمام الكلب المزمجر، فصفقت الأم بيديها لتدعو الكلب إليها حتى يترك الرجل. كما ألقت على ابنتها نظرة تأنيب

وعتاب. وبأدب رفع الغريب قبعته تحية للوالدة وتقدم نحوها وهو يسأل:

«هل أنت السيدة غيلمور؟»

«نعم، أنا هي، هل من خدمة نسديها إليك؟»

وكان صوت الأم يدل على ترحيب وود وكرم طبيعي وهو أمر عادي بالنسبة إليها.

«اسمي ماكاليستر.. فلينت ماكاليستر».

اندهشت الأم وابنتها أشدّ الدهشة لكلامه. وكان فلينت يرقب ردّ فعل كشفه عن شخصيته بالنسبة الى كايسي بالذات. فقد أنزلت يديها عن خصرها، بينما خفّضت من كتفيها الشامختين بكبرياء، بحركة تدل على عدم تصديقها لما تسمع. ولو كانت فتحت فمها من الدهشة لما عبّرت عما بنفسها أكثر مما فعلت، فقد انتابها ذهول فجائي لم تعرف كيف تواجهه. وتنبهت إلى أمها وهي تقول للقادم الغريب:

«إننا لم نتوقع حضورك قبل منتصف الأسبوع».

أمّا كايسي فظلّت تحملق في الرجل الذي لم يشبه تصوّرها السابق لفلينت ماكاليستر، الذي بدأ يقول:

«أرجو ألا أكون تسبّبت في مضايقتكم».

فابتسمت لوسيل غيلمور وهي تقول مرحبة به:

«كلا، لقد انتهيت لتوّي من إعداد بعض الفطائر أما القهوة فهي دائماً على الموقد، هلاّ تفضلت بالدخول؟»

فأشار نحو المقطورة وقال:

«يسرني ذلك، لكن يجب أن أعتني بأمر جوادي أولاً».

«ستريك ابنتي كاساندرا مكاناً تتركه فيه».

ومما أغضب كايسي أن والدتها نادتها بذلك الاسم الذي لا تحبه، كما أنها لا

ترحب باطلاع ذلك الرجل على أي شيء خاص بالمزرعة. إلاّ أنها لم تكن في مركز يسمح لها بعدم إطاعة والدتها، فقد نفّذت أمرها وهي مرغمة.

والتقت نظراتها الثائرة بنظرات الرجل المتهكّمة برهة قبل أن تتجه كايسي نحوه، وقد عرفت من صوت اغلاق الباب أن الأم دخلت إلى المنزل. وظلّت نظرات كايسي متجهة إلى الأرض لفترة، ثم ذهبت إلى خلف المقطورة حيث سبقها فلينت ماكاليستر، وكان العداء الذي شعرت به نحوه قبل أن تقابله، والعداء الذي شعرت به نحو الغريب الذي فرض عليها مساعدته بغطرسة وكبرياء، قد تجمّعا معاً في شعور هائل من الكراهية. وكانت عيناها مثل قطعتين من الفحم المتوهج وهما تلتهبان بالشرر الداكن، بينما أخذ الرجل يسحب جواده من المقطورة.

ولو كانت الظروف مختلفة لوقعت كايسي في حب ذلك الحصان الذي رأته، فقد كان من نوع الأبالوشا الأسود النادر المحلىّ باللون الأبيض في بعض أجزاء جسمه. وكل ما جال في خاطرها وقتئذ هو أن في مقدور أي شخص أن يقتني جواداً كهذا إذا كان لديه القدرة المالية على شرائه. ولو فكرت كايسي في ذلك قبل الآن، لما اختارت في مخيلتها غير هذا الحصان ليقتنيه فلينت ماكاليستر ويركبه ويجذب به الأنظار إلى نفسه. وسرعان ما قالت:

«أتريد اصطبلاً لحصانك؟ إن جياد مزرعتنا تنطلق في الأحراش وتحتمي تحت تعريشة بسيطة».

فردّ عليها قائلاً:

«إنه فحل جواد، وأفضّل أن يكون منفصلاً عن غيره. ولا داعي للاصطبل».

وكان ردّه مقتضباً مثل سؤال كايسي تماماً. وأشارت نحو الحظيرة وقالت:

«يستطيع سام الذي يعمل في مزرعتنا، أن يعدّ مكاناً مناسباً لجوادك، فهو يعتني ببعض المواشي الصغيرة اليوم».

وسارا نحو المبنى يتبعهما الحصان بهدوء وصاحبه يقوده من لجامه. وكان سام متكئاً على أحد الأعمدة، والسيكارة تتدلىّ من فمه، وهو يتحدث بهمس للمهر الصغير الواقف بجواره. ولم تشأ كايسي أن تبدّد صفو انسجام هذه الخلوات التي كان سام يمرّن فيها أذني المهر الذي كان يستمع بإنصات إلى كل كلمة يقولها سام. ولم تكن هناك حاجة لاشعار سام بأنهما واقفان يرقبان، إذ كان يشعر فعلاً بوجودهما. ونظرت كايسي بطرف عينها إلى فلينت متوقعة أن يبدي تأففه ونفاد صبره، لكنه لم يكن مستاء، بل كان يرقب المنظر بنفس الاهتمام الذي كانت كايسي تبديه عادة عندما كان سام يقوم بعمله السحري في تدريب الخيول الصغيرة. وأخيراً قاد المهر إلى بوابة المرعى ونزع عنه اللجام وربت على فخذه وهو يطلقه نحو الحقول الواسعة.

وعندما عاد سام إليهما، راقبت كايسي وجهه جيداً لترى ردّ فعله نحو الرئيس الجديد. فمهما كانت أفكار سام وهو يصافح الرجل الغريب، بعد أن قدمته إليه كايسي، فقد أخفاها عن أعينهما، الأمر الذي لا يستغربه أحد من سام المعروف بالغموض دائماً. وبسرعة انتهى التعارف بين الرجلين وقاد سام الجواد الجديد مبتعداً عنهما. وعادت كايسي بتثاقل إلى المنزل. وكانت تتمنى أن تتخلّص من صحبة ماكاليستر بتركه مع سام. فقد كانت متأكدة أن فلينت لن يدع سام يقوم بالعناية بأمر جواده الثمين بدون ملاحظته هو نفسه، إلا أن فلينت عاد معها. وبعد برهة قال:

«قابلت أباك صباح اليوم وراجعنا معاً كثيراً من الأمور المتعلّقة بالمزرعة، لكني سأحتاج إلى مساعدتك لي في الأسابيع القليلة القادمة يا كاسندرا».

فحدجته كايسي بنظرة حانقة وسألت نفسها عما عساها أن تفعل. هل تسجد عند قدميه شاكرة له إلقاء بعض الحلوى إليها كصدقة منه، في حين أن الحلوى كلها يجب أن تكون لها ومن حقها؟ لذا قالت له بلهجة التهكم:

«إنه لكرم منك أن تقول هذا، خاصة وأنه موجه إلى أنثى».

وعندما رفع حاجبيه مستغرباً وتابعت كلامها قائلة:

«أرجو أن تخبر والدتي بأنني سأذهب إلى هاريسون لاصلاح الاطار وأنني سأتناول الغداء هناك».

واستدارت كايسي وانصرفت فجأة، تاركة لغيرها مهمة الترحيب بالضيف الجديد، لانها قرّرت بينها وبين نفسها أنها لن ترحب به ولن تفوه بأي كلمة ترحيب زائفة لا تشعر بها. فهو بالنسبة إليها رجل دخيل وغير مرغوب فيه.

وعندما أدارت السيارة نحو الطريق رأته ينظر إليها، ورأت مظهره ينم عن غضبه من سوء أدبها معه وحماقة تصرفها، ومع ذلك كان رأسه يميل قليلاً إلى الجنب فيما يبدو وكأنه يتعجب لأمر طريف جداً.

وعند عودة كايسي من المدينة، قابلت سميثي وهو في طريقه إلى مزرعتها، فاستخدم آلة التنبيه ليلفت نظرها، وأشار إلى الجزء الخلفي من سيارة النقل. ورأت كايسي محرّكاً موضوعاً في السيارة، واتضح أنه أصلح المضخة اللازمة رقم ١٠.

وعندما أنزل سميثي المضخة لاعادتها إلى مكانها الأصلي سألها:

«لماذا تبدو عليك الكآبة اليوم؟»

فردّت عليه بتقطيبة غيرّت من ملامحها:

«لقد حضر»

«ماكاليستر؟ فلينت ماكاليستر؟»

ثم أخرج صفيراً من بين شفتيه وتوقّف عن عمله لغرابة الخبر وقال:

«إذاً قابلت الرئيس الكبير، ما رأيك فيه؟»

«إنه ليس كبيراً، بل فارغ القامة فحسب».

واستدارت كايسي في يأس واستندت على السيارة، وقالت وهي تتوق إلى

الافاضة في مشاعرها:

«إنه يا سميتي أسوأ مما تخيلت».

وبرفق استدرجها سميتي إلى الحديث. فبينما هي تقص عليه مقابلته له في الطريق العام، احتفظ سميتي بهدوئه الخارجي بينما أخذت يداه تثبتان المضخة في مكانها. وهو يلحظ الأسى في صوتها بسبب غضبها من فلينت ماكاليستر. وكان سميتي يعرف أن كايسي لا تحب أن يراها أحد عندما تستسلم لجانب الأنوثة فيها وتبدي الضعف الذي تعتبره نوعاً من الجبن. وأنهت قصتها بقولها:

«كان الموقف فظيعاً يا سميتي، قد عاملني وكأنني مخلوقة خاوية المخ، وليست لديها ذرة من الحكمة. ولا شك يمكنك أن تتخيّل رأيه في أي سيدة تدير مزرعة، لذا شعرت بأنه مستبد ويميل إلى السيطرة عندما تنازل وطلب مني مساعدته».

وسألها سميتي الذي وقف بجانبها:

«وكيف عرفت أن هذا هو شعوره؟ لماذا لا تقبلين الواقع؟ قد يكون فعلاً في حاجة إلى مساعدتك وإرشادك له في عمله الجديد؟ إنك أنت التي تعانين من مركب النقص».

«كلا، هذا غير صحيح».

«إذن لماذا تأخذين كل عبارة على أنها إهانة موجهة إلى بنات جنسك؟»

قال سميتي عبارته هذه وهو يبتسم ليخفّف من حدّة كلماته حتى لا تغضب كايسي.

«هذا غير صحيح! كيف نشأ هذا الموقف من أول الأمر؟ لأنني لست رجلاً! ولذلك اضطر والدي لتعيين شخص لادارة المزرعة لكي يرضي هؤلاء الرجال في البنك الذين لا يؤمنون بأن في استطاعة المرأة أن تدير مزرعة. ولا بد أن هذا الرجل يتفق معهم في الرأي».

«أرجو أن تعرّفيني بهذا الطاغية الذي تولى أمر مزرعتكم».

«بكل سرور».

إلاّ أن الفرصة لم تسنح لكايسي أن تفعل ذلك، فعندما عادا إلى المنزل في المزرعة أخبرت السيدة غيلمور ابنتها بحدّة بأن السيد ماكاليستر ذهب ليتفقد المزرعة بمفرده وقد أنبتها أمها على غيابها قائلة:

«كان من واجبك أن تعرّفيه بالمزرعة بنفسك، يا كايسي».

وبالرغم من النظرة الثائرة في عينيها، فقد خفضتها خجلاً. فإن لوم لوسيل غيلمور الهادئ، وتأنيبها قد أشعرا كايسي بتصرفها الصبياني، وبالرغم من كراهيتها للاعتراف بخطئها فقد تمتمت لأمها بعبارات الاعتذار. إلاّ أن الأم قالت:

«لا داعي للاعتذار لي، بل قدّمي اعتذارك للسيد ماكاليستر نفسه».

فسألتها كايسي بغضب ظاهر:

«ومتى سيعود؟»

«قلت له إن العشاء في الساعة السادسة».

فقال سميتي رداً على عبارة السيدة غيلمور:

«لا يمكنني الانتظار حتى ذلك الوقت، قد أحضر الليلة لمقابلة رئيس كايسي الكبير».

وابتسم ابتسامة جانبيّة صوّبها نحو كايسي لمداعبتها وقال لها:

«هل تصحبينني حتى السيارة؟»

«ما شكله؟»

هكذا سألها مارك بالحاح وهو يستند الى جانب الزريبة حيث كانت كايسي تحلب بقرتهم ميزي.

«لا أدري...فهو مديد القامة، ربما ست أقدام وبوصة أو بوصتين، أي يفوق جوني في الطول».

وحاولت اخفاء تبرمها المتزايد بأسئلة أخيها واستطردت تقول:

«وسيم بصورة مغرورة متعجرفة، ويغلب عليه التهكم، ولكن ما أهمية شكله؟»

ولم يهتم مارك بسؤالها وعاد يقول:

«وكم عمره؟»

«كيف لي أن أعرف ذلك؟ إنني لم أسأله أو أطلب منه توضيح هذه الاحصائيات التي لا تهمني».

«هيّا، حاولي أن تخمني سنه».

«لعله في أوائل الثلاثينات».

وربتت كايسي على جانب البقرة وهي تزيح الوعاء من تحتها وتهم واقفة وقال مارك وهو يأخذ الوعاء من أخته:

«يبدو أنه رجل مسل».

«يا إلهي، يا مارك! إنك تفكر فيه كأنه الممثل الان ديلون! إنه مجرد الابن المتكبر والمتعجرف لأحد المزارعين الأغنياء، والذي يتسلّ بمحاولة الظهور كأحد رعاة البقر».

وعندما سمعت كايسي صوت سيارة قادمة إلى الفناء بصحبة نباح شيب قالت:

«قد يكون هذا هو الرجل العظيم».

واتجه مارك نحو الباب لكنه أبطأ في سيره عندما حذرته كايسي من سكب الحليب، وتلكأت في الزريبة أطول مدة ممكنة لتشغل نفسها بالخيول التي سبق أن أطعمها مارك قبل أن تتجه أخيراً للمنزل. وكانت الساعة وقتئذ تقترب من السادسة. فعندما تقول والدتها أن العشاء سيكون معداً في الساعة السادسة فهو فعلاً يعد في موعده. وقد أفلحت في محاولتها التلكؤ، فعندما دخلت إلى المطبخ لم يكن فلينت ماكاليستر هناك. وبسرعة بدأت كايسي في

العمل. فغسلت يديها قبل معاونة والدتها في وضع الأطباق الساخنة على المائدة. وبعد ثوان دخل مارك الغرفة وتبعه مباشرة فلينت ماكاليستر. وحاولت كايسي ألاّ يتجه نظرها إليه، لأنها شعرت بالغضب والضيق والمذلة. ومع ذلك كانت كل حواسها متنبهة إلى وجوده، فرائحة الصابون وعطر الحلاقة كانا ممتزجين برائحة اللحم المحمّر. ومن ركن عينها رأت الفرق الشاسع بين بياض قميصه ولون شعره الداكن الذي كان لا يزال يلمع بسبب ابتلاله بالماء بعد الحمام، كما سمعت صوت سحب كرسيه على الأرض وهو يجلس أمام المائدة، ونبرة صوته العميق وهو يرد على أسئلة مارك بصبر واهتمام.

وعندما تم وضع جميع الصحون على المائدة، لم يكن أمام كايسي مناص من الجلوس هي الأخرى. وكان الكرسي الوحيد الخالي هو الذي على يمينه. وألقت نحوه بابتسامة، وهي تعلم جيداً زيف هذه النظرة. وتلاقت نظرته الرمادية بنظرتها وهو يتنازل يومي برأسه رداً على تحيتها. وقدّمت إليه كايسي البطاطا وهي ترفع ذقنها متحدية. وكانت متأكدة أن الموجودين يلاحظون صمتها، إلاّ أن أسئلة مارك كانت لا تنتهي بحيث ملأت الفراغ الذي خلفته هي بسكوتها.

«أرجو أن تقص علينا ما تعرفه عن استراليا».

قالها مارك وهو يحث الضيف على الكلام، بينما يأخذ قطعة كبيرة من البطاطا برغم نظرة أمه التي تحمل معنى التأنيب على تصرفه الصبياني.

«ما شكل مزارع الماشية هناك؟»

فرد فلينت بهدوء قائلاً:

«كانت المزرعتان اللتان زرتها هناك تقعان في أواسط استراليا. والأرض هناك مسطحة وبور بوجه عام، وفيها قليل من الزراعة. وعمل الناس هناك لا يختلف كثيراً عن عملنا هنا. وكل ما هناك هو ضرورة التعوّد على الاصطلاحات التي يستخدمونها. فالمزارع مثلاً اسمها المحطات وهكذا. وبسبب اختلاف

الفصول عندهم لا يعلفون المواشي بالذرة والحبوب كما نفعل نحن. لذا إذا طلبت لحماً في مطعم لا تجده طرياً كاللحم الذي تعوّدت عليه هنا بالرغم من أن نكهته جيدة».

«وهل رأيت كثيراً من حيوان الكانغارو؟»

ونظرت كايسي إلى فلينت نظرة تتحداه بها أن يستمر في احتكار الحديث كله بمغامراته، ومع ذلك تابع كلامه مع مارك بصورة اعترفت كايسي لنفسها بأنها هادئة، إذ قال:

«نعم رأيت عدداً منها، وهي تعتبر من الحيوانات المتعبة. أما أشرس الحيوانات البرية فهو الدنجو».

وأراد مارك أن يستعرض معلوماته فقال، وكل انتباهه موجّه إلى فلينت:

«هل هي أحد أنواع الكلاب المتوحشة؟»

«إنها تتزوج من الكلاب المستأنسة، مما يجعلها ذكية بحيث يصعب صيدها. وهي تمشي في قطعان كبيرة، وتجوب المناطق الشاسعة وتهاجم العجول والمواشي الهزيلة.و الدنجو يشبه الذئب، إلاّ أنه أكثر شراسة إذا حاول أحد مقاومته».

وانتهى العشاء بسرعة بينما استمر فلينت ماكاليستر يقصّ أحداث تجربته في السنة التي قضاها في استراليا. واكتشفت كايسي رغماً عنها أن اهتمامها لا يقل عن اهتمام أمها وأخيها بحديث فلينت. ففي خلال تناول العشاء تعلمت عن استراليا أكثر مما تعلمته من كتب. الجغرافيا بالمدرسة وذلك بفضل مقارنة فلينت بين الحياة وبين مثيلتها في ولاية نبراسكا التي تعرفها جيداً. ومع ذلك ظلّت محتفظة بمظهرها الذي لا يدلّ على الاهتمام بما يقول، بل والذي يتسم باللامبالاة.

وأخيراً قال فلينت وهو يشرب آخر قطرة من فنجان القهوة:

«هذه وجبة شهية جداً يا سيدة غيلمور».

فقالت له لوسيل غيلمور والابتسامة تشع في وجهها:

«إننا في هذه الأسرة نتعامل بأسمائنا المجردة يا سيد ماكاليستر. لذا ناداني باسم لوسيل».

«إذن يجب أن تنسي لفظ السيد ماكاليستر وتناديني باسم فلينت».

ورأت كايسي كيف حوّلت الابتسامة وجهه من تعبير الواثق من نفسه في تهكم، إلى نظرة ساحرة لا تقاوم، وهو يقول:

«بما أن هذه أول ليلة لي هنا، وربما لا تسنح لي الفرصة لقضاء ليلة أخرى بدون أعمال كتابية، أرجو أن أعبّر عن تقديري لضيافتكم وذلك بمساعدتكم في غسل الصحون».

فردّت كايسي لتبدد الصمت الذي فرضته على نفسها:

«إنني أقوم بهذه المهمة بدلاً من والدتي».

غير أن مارك علّق على كلامها قائلاً:

«وهي تكره هذه المهمة غاية الكراهية».

وكانت عبارة مارك في محلها، لكنها عملية فرضها ضمير كايسي عليها لتكفّر بها عن عدم معاونتها لوالدتها في شؤون المنزل.

«في هذه الحالة، لا بدّ أنها سترحب ببعض المساعدة».

وبرغم نظرة فلينت الهادئة، وهو يقول هذه العبارة،إلاّ أن كايسي شعرت بما تحمله من تحدٍ.

وكادت ترفض مساعدته، إلاّ أنها لم تستطع مقاومة رؤيته وهو واقف أمام الحوض المليء بالصحون. فمنظره وهو يرتدي مئزر والدتها المزركش حول خصره جعلت عينيها تبرقان في خبث ودهاء وهي تقبل مساعدته بدلال زائف.

وبدأت عملية غسل الصحون في صمت وقد اختار فلينت أن يقوم هو بمهمة الغسيل إذ إن كايسي تعرف مكان الصحون بعد تجفيفها. والغريب أن

فلينت بدا طبيعياً، وهو واقف أمام الحوض، وكان يشعر برغبة كايسي في الاحتفاظ بالتباعد الموجود بينهما وقصر الكلام على الرسميات، فقال أخيراً مبدداً صمتها:

«لاحظت أن التبن في الحقل الغربي جاهز للحصاد».

ولعدم رغبتها في موافقته على كل ما يقوله، ردّت عليه بتثاقل قائلة:

«ربما الأفضل أن تحصده في بداية الأسبوع القادم، وبرغم أن الوقت مبكر إلاّ أننا حصدنا نفس الحقل في الأسبوع الثاني من حزيران يونيو في العام الماضي».

«إن طائرتكم ليست لها رخصة، وأريد أ ن ألقي نظرة من الجو على المزرعة بأسرها حتى أكوّن فكرة شاملة عن مواقعها».

وشعرت كايسي بنظره يتوقف على وجهها برهة ثم قال:

«هل يمكننا استعارة طائرة من الجيران؟»

«أعتقد أن آل سميث مستعدون لاعارتي طائرتهم في أي وقت، ولا أعرف شعورهم نحو إعارتها لشخص غريب».

وسرّها إيلامه، ولو أن الملاحظة لم تنجح في اختراق حاجز ثقته بنفسه فعاد يقول:

«لا أعتزم أن أقودها بنفسي. قالت لي والدتك أنك معتادة على قيادة الطائرة كاعتيادك على ركوب الخيل».

والتقت عيناه الرماديتان بنظرتها التي علتها الدهشة في شيء من التسلية.

«طبعاً لا أستطيع رؤية الأراضي جيداً إذا كنت خلف عجلة القيادة».

«لقد فهمت».

فهمت كايسي أنها ستكون قريبة من ذلك الرجل لمدة ساعتين أوثلاثة. كما عرفت بمزيد من المضايقة أن تفتيشه على المزرعة سيكون دقيقاً، لذا سألته:

«متى تريد مني تدبير أمر هذه الزيارة؟»

«غداً».

فتوقفت يد كايسي وهي تسحب صحناً من الماء، إذ بدا لها إنه لن يمنحها الوقت الكافي لتعتاد على فكرته.

«سأسألهم إذا كانوا في حاجة إلى استخدام طائرتهم غداً».

«ربما يحتاجون إليها».

عادت كايسي إلى عملها في تجفيف الصحون، فوقفت على أطراف أصابعها ومدّت ذراعيها نحو الرف الثالث من الخزانة المثبتة فوق الحوض، ممسكة بالصحن في يدها، بينما حاولت أن تزيح بعض الأواني عن طريقها باليد الأخرى، فوقع على رأسها عدد من الأطباق البلاستيكية بينما كانت تسحب الأواني الزجاجية نحو الرف، الأمر الذي أدّى إلى سقوطها عليها. فمالت كايسي بثقلها على الحوض وهي تحاول أن تطيل قامتها ما أمكنها بينما أحسّت بذيل قميصها يعوم في مياه الغسيل. وبينما تحاول إيجاد طريقة لانزال الصحن ثانية وإنقاذ الأواني من الوقوع، لاحظت أن فلينت يستجيب لحرج موقفها.

فقد أتاح له طوله الفارع أن يصل للرف الثالث بلا عناء. ولكن، ليفعل ذلك، اضطر أن يشرئب بجسمه فوق رأس كايسي . وعندما لامس جسمه بعضلاته القوية جسمها أحدث فيها توتراً قوياً بينما حاولت هي السيطرة على قشعريرة جسمها حيث لامسها. وسمعت في الخارج صوت باب يغلق وصوت مارك وهو يرحب بالزائر القادم.

«أهلاً يا سميتي. كنت متأكداً أنك ستحضر الليلة».

واستطرد مارك قائلاً بصوت كان يرن في المطبخ بوضوح:

«سيسبب لك الرجل الجديد كثيراً من المنافسة، فهو الآن في المطبخ يساعد كايسي في غسل الصحون».

وكان فلينت قد أنقذ الأواني الزجاجية ووضع الصحون وراءها. واصطنع

وجه كايسي بلون أحمر عندما نظر إليها فلينت. وجالت بخاطر كايسي رغبة شديدة في أن تخرج إلى الشرفة وتخنق أخاها ذا الصوت العالي الذي أحرجها، إلا أنها اختارت أن تجمع أغطية الأواني التي تبعثرت على الأرض.

وقال فلينت وقد عاد إلى الحوض والصحون الباقية فيه:

«هل أفهم أن صديقك قد وصل؟»

«إنه سميثي، أقرب جيراننا إلى بيتنا».

وحاولت كايسي أن تسيطر على نفسها بهدوء بعد أن أثارها برجولته وعضلاته.

«هل هو الذي ستستعيرين الطائرة منه؟»

«نعم».

«خيراً، سنعرف الليلة إذا كان في إمكاننا الحصول عليها».

٦ ـ طائران في الهواء

حاولت كايسي جاهدة أن تحتكر سميثي ما أمكنها، وتسيطر على الحديث معه في تلك الليلة لتنفس عن غضبها وتنتقم من فلينت، وتعمّدت أن تدير الحديث عن أشخاص وأماكن لا يعرفها غيرهما حتى تحرج فلينت وتتركه جاهلاً بما يقولان. إلاّ أن سميثي لم يساعدها على ذلك، إمّا بسبب غبائه أو عناده، بل أخذ يدير الحديث ويعود به مراراً لموضوع الزراعة وتربية الماشية. وجلست كايسي في صمت متأففة وهي تستمع إلى مواضيع البذور والري والعلف وتأثير الجو على الزراعة والماشية. كما أن فلينت لم يعطها الفرصة لتطلب موافقة آل سميث على استعارة طائرتهم للجولة التفتيشية، فبسؤال بسيط مهذب حقق فلينت مطلبه وكاد سميثي يطير من الفرح لتلبية طلبه. وعندما وجدت كايسي نفسها وحدها مع سميثي بعد أن تركهما ماكاليستر، أخذت كايسي تؤنّب سميثي على فعلته قائلة له:

«الطريقة التي وعدت بها إعارته الطائرة كلما احتاج إليها كانت طريقة مبتذلة ومقززة، ويخيل إليّ، من فرط اهتمامك به، أنك تريد أن تعلّق لافتة تقول فيها إن فلينت ماكاليستر كان يجلس هنا»

فرد عليها سميثي وقد ضاق ذرعاً بتصرفاتها وتبرّمها من فلينت ماكاليستر:

«لماذا تبالغين في الأمور هكذا؟ فأنت تعلمين أن طائرتنا كانت ومازالت دائماً تحت تصرفكم منذ أن تعطلت طائرتكم. ويبدو أن السيد ماكاليستر لم يعلم بذلك،

فالواضح أنك لم تخبريه، بل صوّرت له الموضوع وكأنه من الصعوبة بمكان. فكل ما فعلته أنا أنني طمأنته على استعدادنا لمساعدته كلما احتاج إلينا».

فسخرت كايسي من عبارات سميتي، وشعرت أنها تقف وحدها ضد فلينت ماكاليستر، ففي يوم واحد رأت انبهار أخيها الأصغر به، وتأثر أمها بظرفه وأدبه ووسامته، والآن ضاع أملها تماماً بانضمام سميتي إلى جموع المعجبين!

انساب السحاب الأبيض فوق الطائرة بينما اختلست كايسي نظرة نحو الرجل الجالس في الكرسي المخصص للركاب. وفجأة نظرت في العينين اللتين كانتا ترقبانها وتلحظان عبوسها المتزايد كلّما ازدادت أفكارها كآبة. لقد مرّت ساعة وهما طائران في الهواء.

تضايقت كايسي من نظراته وسألته، محاولة ألاّ يبدو عليها الغضب من حملقته فيها، وكأنها تريد أن تنتهي من تلك المهمة الصعبة وهي البقاء معه في مكان واحد:

«ماذا تريد أن ترى غير ذلك؟»

فأجابها وكأنه لا يأبه إلاّ بالمهمة التي أمامه، والتي جاء من أجلها:

«دعينا نحلّق مرة أخرى فوق المرعى الموجود في الجزء الجنوبي، وأرجوك أن تطيري على ارتفاع منخفض هذه المرة».

وأومأت برأسها تعبيراً عن موافقتها. وبمهارة مالت بجناح الطائرة قبل أن تتم دورتها، ثم استوت على ارتفاع ثمانمائة قدم فوق سطح الأرض. كان الطيران أحد الأشياء التي تحبها كايسي. وكانت فرحة ومستريحة لاستجابة الطائرة إلى لمساتها الرقيقة كاستجابة الجواد المدرّب لاشارات صاحبه. كما أن الطيران يمنحها شعوراً بانفصالها عن متاعبها، ففي الطائرة الصغيرة هدوء لا وجود لمثله على الأرض. وقال لها فلينت، بدون أن تخطر بباله فكرة المجاملة:

«إنك طيارة ماهرة».

فأجابت بهدوء وبلا غرور، بل بثقة:

«أعلم ذلك».

«قال لي والدك إنه لا يمكن الاستغناء عنك في المزرعة، ويبدو لي أنه من الذين يقولون ما يعنون».

فأجابت كايسي بثقة للمرة الثانية:

«نعم، هو من ذلك النوع».

وشعرت كايسي بشعور دافىء من الفخر بأبيها، وبالمديح الذي وصفها به. وحاولت في قيادتها للطائرة أن تقاوم الهواء، وتطير في خط مستقيم، وقالت لفلينت الذي أخذ ينظر إليها:

«المرعى في الجانب الآخر».

وعاد فلينت إلى موضوع والدها فقال:

«يعتقد والدك أن في استطاعتك إدارة المزرعة بمهارة وبمفردك».

قالها فلينت وهو ينظر من النافذة التي يجلس بجانبها، إلى ساند هيلز. فردت بعزم وهي تقابل نظرته بثبات، وتحاول ألاّ تخرج عن الموضوع الذي أتيا من أجله:

«ظننتك تريد أن تتفقد المزرعة».

«هذا هو جزء مما أريد».

«والغرض الآخر؟»

«رغبتي في معرفتك أكثر مما أعرفك الآن، يا كاساندرا».

قالها ببساطة مع وجود لهجة جادة في كلماته، أشعرت كايسي بأنها الهدف الأساسي من الرحلة.

«كنت متأكداً من أنني، إذا حاولت التقرب منك في المزرعة، ستهربين مني كما فعلت أمس».

ونظر حوله داخل الطائرة واستطرد يقول:

«اعترفي بأنه لا يمكنك الهروب مني الآن».

«دعنا نتكلم بصراحة يا سيد ماكاليستر. إنني لم أرحب بقدومك إلى المزرعة ولم تكن دعوتك لمعاونتنا فكرتي أو فكرة أبي، بل هو البنك الذي أراد رجلاً في موقع الرئاسة».

وتعمّدت كايسي وهي تتكلّم، أن تضغط على لفظ رجل.

«وبصراحة لم تعجبني قبل أن أقابلك أما الآن قد...»

فأتم فلينت عبارتها قائلاً:

«ما زلت لا أعجبك...تصرفاتك أوضحت مشاعرك، لكن لا بدّ من وجودي هنا مؤقتاً».

«يا له من سوء حظ لنا نحن الاثنين».

«إذا كان هذا موقفك دائماً، فأمامنا شهر ونصف في منتهى الصعوبة».

ونظر فلينت إليها في تساؤل، وأتمّ كلامه قائلاً:

«أم تقبلين الواقع بأنني مجرد بديل مؤقت لوالدك؟»

فقالت كايسي في قرارة نفسها: إنك لن تستطيع أ ن تملأ مكانه.

وعاد فلينت يقول:

«الأمر متروك لك، ففي إمكانك معاملتي كغريب أو كزميل في المزرعة مثل جيرانك آل سميث. وفي الحالتين أود أن أذكرك بحكمة هندية قديمة تقول «لا تحكم على إنسان قبل أن تمشي عشرة أميال في حذائه» أي حتى تضع نفسك في مكانه وتشعر بشعوره».

فاشتدت قبضتها على عجلة القيادة وهي تتعجب من فلسفته المتغطرسة. فجزء منها يعترف بصدق عبارته، أما الجزء الأكبر فتبرم لاضطرارها إلى الاشتراك في أي حديث معه.

«أوافقك على أننا نحاول إنجاح موقف لا بد لنا منه، والآن...هل أتجه بالطائرة الى المزرعة؟»

أومأ فلينت برأسه، فأضافت كايسي قائلة:

«هناك شيء آخر. من الآن فصاعداً أرجو أن تناديني باسم كايسي. لكن لا تناديني بعد الآن باسم كاساندرا، فإنني أكره هذا الاسم».

طمأنهم الطبيب أن حالة غيلمور تتحسّن، واعترفت كايسي عندما رأته أن روحه المعنوية ممتازة. فبعد الخروج من الكنيسة تطوّع فلينت بأخذ كايسي ووالدتها و مارك إلى سكوتسبلاف. واستأذن السيدة غيلمور في أن يتابع مسيرته لزيارة والديه في أوغالالا ثم يعود ليصطحب آل غيلمور في المساء بعد موعد الزيارة في المستشفى. وبسرعة رحبت الأم بالفكرة ووافقت عليها.

ولاحظت كايسي عودة اللون إلى وجه والدها عندما دخلوا عليه في غرفته بالمستشفى، كما لمعت عيناه وهو يمسك بيد زوجته ويجذبها نحوه برفق. وعندما تبادلا عبارات الشوق، شعرت كايسي بدفء الروابط العائلية الموجودة بينهما. ولم يفتها أن تنظر إلى فلينت ماكاليستر لترى إذا كان سمع تبادل تلك العبارات. وكان فلينت قد أوصلهم إلى الغرفة عملاً بأصول الأدب والاحترام، ورغبة منه في زيارة جون غيلمور.

وتأكدت كايسي من تعبيره الجاد المحترم بأنه سمع ما دار بين الزوجين من كلمات الود والشوق، ورغماً عنها قدرت فيه وقوفه بعيداً عنهم حتى يعطي الأسرة فرصة تبادل التحية، برغم أنه شخصياً كان تواقاً إلى أن يحيّ جون غيلمور قبل انصرافه لزيارة أسرته.

وأخيراً صافح فلينت اليد الممتدة إليه وقال:

«يبدو عليك التحسن يا سيد غيلمور».

وساء كايسي أن فلينت يكلّم والدها بهذا الاحترام، وكانت تفضل لو اتبع معه نفس روح التعالي التي اعتادتها منه، أي الطريقة التي لا يمكنها أن تولّد نظرة الاعجاب التي لاحت في عيني أبيها.

فأجاب الأب معترفاً بسماحة الزائر:

«أشعر بخير وتحسن... واسمي جون فقط يا فلينت».

فابتسم فلينت وأومأ برأسه، معبراً عن موافقته لازالة الرسميات بينهما وقال:

«إنني في طريقي لزيارة والديّ، وأودّ أن أطمئنك بأن كل شيء يسير على ما يرام في المزرعة، باستثناء بعض الوجوه المتجهمة والعبوسة لغيابك.»

وجال بنظره حول أفراد الأسرة ليفسرّ معنى عباراته، غير أن كايبي شعرت أن نظرته تمهّلت واستقرت عليها مدة أطول من غيرها، ومع ذلك لم تترك نفسها تشعر بالذنب لتصرفاتها. وابتسم الأب وقال:

«إنني أقدر زيارتك لي، ولا شك أنك تريد الاسراع لزيارة أسرتك، لذا لن أعطلك بأسئلتي الكثيرة، فإنني سأتركها لكايبي».

وتركهم فلينت وهو يقول انه سيعود الساعة الثامنة. غير أن أباها لم يلق عليها اي أسئلة التي توقعتها، إذ أن آل سميث كانوا قد وصلوا بمجرد انصراف فلينت.

وعندما صافح الوالد سميتي قال له مازحاً:

«كنت أحاول أن أعرف سبباً لارتداء كايبي فستاناً اليوم. ففكرت أولاً أنه مرتبط بي، ثم قررت أنه مرتبط بماكاليستر، ثم ظهرت أنت، يا سميتي فزادت حيرتي».

فاحمر وجه كايبي من الخجل والغضب وهي تنظر إلى فستانها، وكان طرازه مثل فساتين الأربعينات، بياقة مستديرة وأكمام قصيرة تصل إلى منكبيها، إلاّ أنه كان أقصر بكثير من الطراز القديم. وكان الزي يلائمها تماماً، بعكس لونه الذي كان قاتماً بالنسبة إليها. وقالت كايبي:

«ارتديت الفستان عند ذهابي للكنيسة يا أبي، إذ تعرف كيف لا يرحب الأب كارفر بلبس البنطلون».

«هذا، إذن، هو السبب».

إلاّ أن بريق عيني الأب ظل يداعبها، وغضبت كايبي من نفسها لأنها لم تستطع مجارته في مزاحه. وحتى في مداعبته، لم يعجبها أن يفكر والدها بأنها ارتدت الفستان لتؤثر على فلينت. وكانت هي الوحيدة التي لاحظت عبارة أبيها، غير أنه سرعان ما نسي الجميع الموضوع واستراحت كايبي منه.

كان والدها محبوباً في المنطقة التي يعيش فيها، لذا جاء لزيارته عدد كبير من أصدقائه يوم الأحد، فكانت في غرفته حركة تنقلات مستمرة حرصاً على اتباع تعليات المستشفى بألاّ يزيد زوار المريض في المرة الواحدة على عدد معين. والوحيدة التي لم تتغيّر بتغيير الزوار، هي لوسيل غيلمور، فقد أمسك جون غيلمور بيدها وأبقاها بجانبه طوال الوقت.

وعندما أخذ آل سميث يستعدون للرحيل عصراً وصل جوني غيلمور فاغتنم سميتي فرصة وجوده وتوسل لكايبي أن يبقى هو وتوصله في طريق العودة حتى يقضي بعض الوقت مع جوني. وانتهى الأمر بثلاثتهم، كايبي و جوني و سميتي، بأن ذهبوا لتناول العشاء معاً كما كانوا يفعلون قديماً.

وفي منتصف العشاء، ألح جوني عليها قائلاً

«أخبراني عن ذلك الرجل الجديد. فقد أعطاني أبي فكرة عن خلفيته، لكن ما هي حقيقته؟»

فنظر سميتي إلى كايبي عبر المائدة قبل أن يوجه كلامه إلى جوني:

«إنه ليس قطعاً بالصورة التي كانت تتخيلها كايبي، فهو في الواقع رجل عظيم. ذهبت إلى المزرعة عدّة مرات هذا الأسبوع وأقسم يا جوني أنه لا توجد طريقة جديدة في فن المزارع لا يستطيع مناقشتها بمحاسنها ومساوئها. ومع ذلك لا أراه مدعياً أومتكبراً بسبب خبرته، بل هو طبيعي جداً وبسيط. فالسيد ماكاليستر لا

يتعالى عليك في كلامه أبداً».

وتوقف سميتي عن الكلام ونظر إلى كايسي بتردد قبل أن يستأنف حديثه:

«إن حياته ليست كلها مليئة بالعمل، ويوحي إليك منظره أن له اهتمامات أخرى بالمجتمع وأفراده، هل تفهم ما أعنيه؟»

وسأله جوني وعلى وجهه ابتسامة خبيثة ونظرة مداعبة صوبها إلى أخته:

«هل هو وسيم؟»

فردت كايسي بنفس طريقتها الخالية من الحماس كلّما جاء ذكر فلينت:

«إذا كان يعجبك صنفه»

فأجاب سميتي وهو يضحك معلقاً على كلامها:

«لا تصدقها، إنه من الصنف النحيل الخشن الذي يبدو وكأنه خطا لتوه من شاشة السينما. وأراهنك أن في مفكرته أسماء عدد من الفتيات اللواتي ينتظرن منه إشارة بسيطة».

فصاحت كايسي بغضب:

«أنت مقرف، وسرعان ما ستتباهى أنت أيضاً بمغامراتك وغرامياتك. أفهم ألاّ يهتم فلينت بسمعة المرأة، لكنكما يجب أن تحترماها وتحترما سمعتها».

فنظر إليها جوني باستغراب كبير وقال:

«ماذا قلنا حتى تستحق كل هذه الثورة؟»

فهز سميتي رأسه وقال:

«لا تلتفت إليها، فما عليك إلاّ ذكر اسم ذلك الرجل حتى تثور. فأول مرة رأته كانت مسرعة في الطريق العام وانفجر إطار سيارتها فأنّبها وأعطاها درساً في أصول القيادة. ومنذ ذلك الوقت وهي ثائرة عليه».

فقالت كايسي وهي تحتج على كلامه:

«لا علاقة لذلك الحادث بشعوري نحوه».

وألقت بالفوطة على المائدة، وفتحت حقيبة يدها، وأخرجت منه بعض النقود وأعطتها لسميتي وهي تقول:

«سأعود لأبي في المستشفى، ها هو ثمن عشائي، ويمكنكما البقاء هنا كما يحلو لكما».

وحضر فلينت في الساعة الثامنة تماماً ليصحبهم إلى المنزل. ولم يعلق على ركوب سميتي معهم، بل حياهم وهو يفتح باب السيارة الخلفي لسميتي و كايسي و مارك. ثم عاون السيدة غيلمور في الركوب في المقعد الأمامي قبل أن يجلس هو أمام عجلة القيادة. وبسرعة اشتركت السيدة غيلمور في الحديث معه عن زيارته لوالديه، بصوت خافت لم تشرك فيه ركاب الجزء الخلفي من السيارة، الأمر الذي سرت له كايسي كثيراً إذ جنبها اضطرارها للحديث معها.

جلست كايسي خلف السائق بجانب النافذة، بينما جلس سميتي في الوسط و مارك في الجانب الآخر. ولاحظت كايسي أن سميتي كان صامتاً بصورة غريبة، فيما أخرج مارك الراديو من جيبه وأداره بصوت خافت، مستنداً على الباب وواضعاً الراديو على أذنه. وأخذت كايسي تنظر من النافذة وترقب الشمس بلونها البرتقالي وهي تقترب من المغيب، وشعرت بالحزن والضيق لسبب لم تفهمه. وتحوّلت عيناها إلى الرجل الجالس أمامها، وأخذت تنظر إلى شعره البني، بخصله التي وصلت إلى ياقة سترته الزرقاء. وشعرت بذراع سميتي تلتف وراءها، والتفتت إليه والابتسامة الحلوة تضيء وجهها وقالت:

«عزيزي الحبيب، سميتي»

ثم أخذت يده التي استقرت على كتفها ومست أطراف أصابعه. ولسبب غير معروف إلاّ لعقلها الباطن، حوّلت نظرها إلى المرآة المثبتة بجوار السائق، فرأت فلينت يحدّجها بعينيه الداكنتين اللتين تبعثان شرر الغضب، مثل سحب العاصفة العاتية وأدهشها العنف الذي رأته فيهما. وفي تلك اللحظة قالت الأم

شيئاً للسائق لم تتبينه كايسي، فاحتجبت النظرة التي كانت في عينيه وهو يلتفت ليرد عليها. أما نظرة الغضب التي بدت في عينيه، عندما رأى مداعبتها البريئة لسميتي جعلت كايسي تتعمد التصاقها أكثر بصديقها. وبعد ذلك ببضعة دقائق عادت تختلس النظر في المرآة من خلال أهدابها المرتخية ورأسها يستند على كتف سميتي...وهذه المرة رأت عيني السائق، وهما تلتقيان بعينيها. كانتا بلون رمادي فاتح، ترتسم فيهما نظرة تدل على عدم الاهتمام.

وسرعان ما انتابت كايسي حالة تشبه النوم بسبب دفء ذراعي سميتي وظلام الليل المنسدل. وعندما غيرّت السيارة صوت إيقاعها الرتيب، وخفّضت من سرعتها لاقترابها من المنزل، تنبّهت كايسي وشعرت بما حولها ودار فلينت في مقعده وقال:

«أتريد أن أوصلك للبيت الآن يا سميتي؟»

فكتمت كايسي تثاؤبها واعتدلت في جلستها وقالت:

«سأوصله بنفسي إلى المنزل عندما نصل إلى هناك».

فقال فلينت وهو يحاول أن تبدو نبرة صوته طبيعية:

«الساعة الآن بعد العاشرة، وننوي الاستيقاظ مبكراً لضم التبن».

تنبهت كايسي تماماً لما يحمله صوته من انتقاد، لذا لم تجنبه استهزاءها فقالت:

«لا تقلق، مرة سهرت أكثر من الآن، ومع هذا استيقظت عند الفجر».

«تصرفي كما تشائين».

وبعد لحظات وصلوا إلى الطريق المؤدي إلى المزرعة، وقفت السيارة تحت عامود نور الفناء وتبادل الجميع تحية المساء، فقبلت كايسي أمها، وتمنت لمارك ليلة مريحة، وابتسمت بتثاقل لفلينت، ثم جلست في مكان القيادة في السيارة التي نزل منها فلينت.

ورفع فلينت أصبعيه لتحية سميتي وقال له:

«حاول أن تجعلها تقود السيارة بحذر».

وبعد ثلاثة أرباع الساعة عادت كايسي، وكان المنزل مظلماً إلا من مصباح الشرفة. وتسللت كايسي إلى المنزل بهدوء حتى لا تزعج أحداً، ورأت خطاً من النور منبعثاً من تحت باب غرفة المكتب التي كانت تستخدم الآن كغرفة نوم ومكتب لفلينت. وأحدث أحد الألواح الخشبية المثبتة تحت المشمع فرقعة عالية وهي تحاول أن تخطو بحذر فوقها. وفجأة امتلأت الغرفة بالنور فيما عدا المكان الذي وقف فيه فلينت بالباب. ففوجئت به كايسي وبادرته قائلة:

«ما كانت هناك حاجة لكي تنتظرني».

وكانت غاضبة، لكن لم يكن ذلك هو السبب في احمرار خديها بل كان السبب نظرته التي أخذت تفحص وجهها بدقة وكأنه يرى آثار عناق سميتي. وتوترت عضلات خديه وهو يقول:

«نعم ما كان يجب أن أفعل ذلك، لكني انتظرتك لأني رأيت نموذجاً من قيادتك للسيارة. كما أن أمامي أعمالاً كتابية يجب الاسراع بإتمامها».

فردت عليه بحنق قائلة:

«إن اهتمامك رقيق يستحق الشكر، لكنه غير مرغوب فيه. طاب مساؤك يا سيد ماكاليستر».

ترك انتقاده الذي لا داعي له، مرارة أظهرتها في كلماتها. إلا أن فلينت هز رأسه في نوع من الغضب والتبرم قبل أن يغلق باب غرفته.

٧ ـ كل عضلة تئن

كان اليوم شديد الحرارة حتى بالنسبة لأول شهر يونيو حزيران، وأقسمت كايسي أن الحرارة لا بدّ ستتجاوز الأربعين درجة قبل الظهر بكثير. وتنهدت بقلب كليل وهي تفكر: أهي الشمس التي تنصب على رأسها طيلة النهار، أو عدم جدوى غضبها هو الذي سلبها ثقتها بنفسها. وأدارت السوار حول معصمها لتنظر إلى ساعتها، فربما يرفّه عنها أنّ الساعة الرابعة وأنّ معظم التبن كان قد تمّ حصاده. ودلّكت مؤخرة رقبتها لتخفف من حدّة التوتر الذي أخذ يتزايد في الأيام الثلاثة الماضية.

ففي السنوات الماضية كانت تستمتع بموسم التبن برغم ما فيه من عمل شاق. فبالنسبة الى كايسي كانت أحب رائحة إليها هي رائحة التبن وحديث الحصاد. ثم ضمّت شفتيها من الغضب وقالت في نفسها إنها في هذه المرة لم تلحظ موسمه، وذلك بسبب هذا المستبّد فلينت ماكاليستر، فكلّ أمر يصدره كان يثير أعصابها حتى أصيبت بالقلق. كانت عيناه ترقبان كل شيء تقوم به. وكان مستعداً لمهاجمتها على أي تقصير يصدر منها بسبب أنوثتها. لكنها أثبتت له عكس ظنه، لأنها استيقظت مبكرة وخرجت قبل أي شخص آخر، وبقيت في الحقول بعد عودة جميع العمال، كما تشهد على ذلك كل عضلة تئن في جسمها. وكل ما كانت تتمناه وقتئذ هو أن تترك المزرعة. لذا جرّت قدميها بتثاقل وصعدت درج الشرفة الأمامية ونادت على أمها وهي تدفع الباب المؤدي إلى المطبخ. سمعتها أمها فردت عليها قائلة:

«إنني هنا يا حبيبتي».

واستدارت لوسيل غيلمور من أمام الفرن وقالت:

«هل اتيت من عملك؟ تبدين منهكة».

«ضعي لي بعض الطعام في كيس، أريد الذهاب الى البحيرة».

وحاولت كايسي أن يبدو صوتها طبيعياً، لكنها أخفقت في ذلك، فقالت الأم بعد أن نظرت إليها ملياً:

«بكل سرور».

ثم أضافت قائلة:

«ألم تتقبلي وجود فلينت بعد؟»

فنظرت كايسي إلى أمها وهي تشعر بإخفاقها في إخفاء حقيقة مشاعرها، وقالت في نفسها إنّ الوالدين لا يجب أن يعرفا ما يدور بخاطر أبنائهما بهذه الصورة. وبدلاً من أن تجيب على سؤال أمها قالت لها إنها ستصعد إلى غرفتها لتغيّر ملابسها.

وعند نزولها وجدت كيساً من الورق على المائدة وبجانبه ترموس مملوء بعصير الليمون، فابتسمت كايسي لرقّة أمها التي لبت طلبها بدون أن تحرجها بمزيد من الأسئلة. حملت الكيس وخرجت مسرعة لتركب حصانها آخذة معها صنارة للصيد.

وبعد قليل استقرت كايسي بجوار البحيرة، وفرشت زادها أمامها بينما أخذ حصانها يرعى العشب بالقرب منها. وكانت الحجارة التي استخدمتها في إشعال النار قبل ذلك، مازالت مرصوصة في دائرة حول الرماد القاتم، كما كانت فروع القطن الجافة ملقاة جنباً. وبعد قليل أوقدت ناراً وألقت بصنارتها في مياه البحيرة، وجلست فوق بطانية سرج حصانها وقد ضمّت ركبتيها إلى صدرها لتسند ذقنها عليها في استرخاء. وامتلأت عيناها بدموع لم تسكبها، دموع الغيظ والغضب معاً. ولم تسمح حالتها النفسية بالاستمتاع بمنظر العصافير التي أخذت تحوم

فوقها في السماء الصافية.

وقررت كايسي عدم الاستسلام لهذه الدموع الصبيانية. وبينما هي تحبس عبرة من عبراتها أقسمت أنها لن تدع فلينت يتسبّب في مضايقتها بعد الآن. لكن المشكلة لم تكن فيه هو، بل في كونها تقف ضدّه بمفردها. بعد أن تخلّت عنها أسرتها في موقفها معه، ثم تبعهم سميتي، والآن لحق بهم سام. فكيف لها أن تحاربه وحدها؟

وبينما هي تتأفف من مضايقته، سمعت صوت حوافر حصان يقترب فقالت في نفسها: إذ كان مارك قد تبعني إلى هنا، فإنني سأقتله.

وفيما تمسح الدموع في عينيها، سمعت صوتاً يقول لها:

«هل اصطدت شيئاً؟»

لم يكن مارك بل فلينت! وعادت إليها نوبة الغضب وهبّت واقفة وهي تصرخ فيه قائلة:

«هل من الضروري ملاحقتي في كل مكان؟ لماذا لا تتركني وشأني؟»

«رأيت دخان النار ولم أعلم بوجودك هنا، فأول خاطر طرأ بذهني هو أن حريقاً قد اندلع في الأعشاب، فجئت لأرى ما يحدث».

غير أنّ صوته المتزن وارتجاف عضلات صدغيه لم تقتنع كايسي بسبب مجيئه فارتجف جسدها من الغضب وهي تقول:

«عندما تأكدت من أنه ليس حريقاً، كان يجب أن تعود من حيث أتيت».

وشعرت به يقترب منها لكنها لم تر الغضب في عينيه إلاّ عندما صار بجوارها. كانت عيناه الرماديتان تبعثان الشرر، وامتدّت يده تمسك بمعصمها، وأدارها نحوه بعنف ودفع بها للأمام.

«أترين هذا النبات؟»

وتابعت عيناها أصبعه الممتد، وبلا إرادة أطاعت صوته ونظرت إلى النبات المليء بالشوك، وإلى الزهرة البيضاء التي تعلو وتتوجه بلونها الناصع.

«هذه؟»

وكان سؤالها بنبرة هازئة، وهي تنظر إلى الزهرة التي تشبه زهرة الخشخاش لولا بياضها. وأمرها فلينت قائلاً:

«اذهبي واقطفي لي هذه الزهرة».

«هل أنت مجنون؟»

وحملقت فيه بدون أن تصدّق ما تسمعه.

«إنها زهرة شائكة يعلو الشوك عنقها».

ولم تعجبها صرامة وجهه أو توتر جسمه وحدّة كلماته، وهو يعلو قامتها بثبات وعناد، ومع ذلك لم تتراجع عن موقفها المتحدي وسمعته يقول بانفعال شديد:

«أما أنا، فعليّ أن أتحمل أشواكك لمدة عشرة أيام، أيتها الزهرة الشائكة المسماة بكايسي. إنني لم أطلب هذه الوظيفة، كما لم أتمنَّ الحادث الذي وقع لأبيك، لكنني هنا وسأبقى هنا».

وظلّ يمسك بمعصمها وقد غرس أصابعه في عظامها. إلا أن الألم الجسماني لم يكن هو الذي بعث فيها رجفة الخوف، بل الطريقة الآمرة التي كان يتكلم بها فلينت بهدوء ينذر بالعاصفة.

فردّت قائلة وصوتها يتهدج:

«إنني أحصي الأيام حتى ترحل».

«والدك علّمك الكثير عن الزراعة وتربية المواشي، لكن من الواضح أنه لم يعلمك أصول المعاملة المهذبة».

ثم ترك يدها بحركة تقزز واستدار بعيداً عنها.

«لا تتكلم هكذا عن والدي».

وهذه المرة كانت يد كايسي هي التي امتدت لتوقفه في مكانه. وأخذت الدموع التي كانت تحبسها تتجمع وتحجب عنها الرؤية، وقالت له:

«إنه خير والد في الدنيا، فإنني مستعدة للقيام بأي شيء من أجله، وهو أيضاً

مستعد لأن يفعل أي شيء لي».

ونظر إليها فلينت ببرود وقال:

«إنك مخطئة يا كايسي، فأنت أنانية ولا يمكنك أداء أي خدمة لأحد».

فأنكرت قوله بقوة وانفجرت باكية وهي تقول:

«هذا كذب وافتراء».

«أتظنين ذلك؟ أنت لا تستطيعين حتى أن تكوني مؤدبة معي، أو ودودة، ولو ترك الأمر لوالدك لرضي بإدارتك للمزرعة، لكن يعلم كلانا أن هذا ليس صواباً. إنك لا تسمعين شكواه، لكنك الخاسرة يا كايسي، وما من أحد يحب أن يكون خاسراً».

ولم تستطع مواجهة نظراته، واستقرت عيناها على حذائه المخدوش وحاولت بشجاعة أن تواجه الموقف مؤكدة بأن ما يقوله لا يمتّ إلى الصواب بصلة، وشعرت كأنها حشرة صغيرة لا فائدة منها. ولم يعد هناك مجال للمغالطة إنها فعلاً فتاة مدللة، أنانية لا تستحق الأشياء التي تنعم بها. وأفاقت من أفكارها لترى فلينت فوق صهوة جواده ممسكاً باللجام يتجه نحو المزرعة...فنادت عليه قائلة:

«فلينت!»

كان صوتها ضعيفاً، إلا أنه سمعه، فأوقف حصانه ونظر إليها، إلا أن كايسي مشت نحو فلينت ببطء، ولم تهتم بتجفيف دموعها من وجنتيها وهي ترفع وجهها لتنظر إليه في انكسار:

«إنني أسفة لطريقة تصرفي معك!»

وقبل أن تتم عبارتها خفضت رأسها لتنظر إلى الارض، وانتظرت أن يرفض فلينت اعتذارها، وأن يلقي به في وجهها قائلاً لها إن فرصة إصلاح ما فسد قد ولّت... وبدلاً من أن يفعل ذلك، امتدت يده إليها مرحبة بصداقتها. وقال فلينت.

«قد لا نكون أصدقاء، لكن يجب ألا نكون أعداء».

قالها وهو يمسك باليد التي وضعتها برفق في يده. فأومأت برأسها وسحبت يدها في خجل ظاهر، ورفع ذقنها باصبعه حتى اضطرت كايسي للنظر في وجهه. كان يبتسم تلك الابتسامة الساحرة التي يحتفظ بها دائماً. وحبست أنفاسها من قوة سحر جاذبيته.

«لم يكن ما قلته بالأمر الهين، لقد اعترفت بخطئك لي بالذات. والدك رجل عنيد وإلاّ ما اشتغل بالزراعة وتربية المواشي، إلاّ أنه عادل وأمين، ولم أتصور أن ابنته تختلف عنه في أخلاقه، ربما أكثر منه عناداً».

وتعجبت كايسي كيف لم تلحظ من قبل بريق عينيه، أو الخطوط المرتسمة على وجهه. واصطبغت وجنتاها بحمرة الخجل عندما لاحظت أنها تحملق فيه وأنها معجبة به. فتراجعت وهي تتردد بدون أن تدري ما تقوله، وشعرت بخجل غريب.

وجاء إليهما صوت صهيل جواد من فوق الجبل سرعان ما ردده جواد فلينت. ومسحت كايسي الدموع من وجنتيها، وحولت نظرها نحو مصدر الصهيل، وابتسمت ابتسامة عريضة وهي ترى الحصان الأبيض وهو يهز رأسه على بعد مائة ياردة منهما. وقال فلينت:

«إنني لم أر هذا الحصان في المزرعة من قبل».

فردت كايسي وهي تضع أصبعها في فمها وتصفر للحصان:

«هذا هو جوادي ميركوري».

وبرقت عيناها بالفخر، وهي ترقب الحصان يقترب منها بخطوات واسعة متهادية رافعاً أنفه ليشم رائحة الرجل الغريب. أما ذيله فرفعه في خيلاء. وكان جلده الأبيض يلمع في صحة واضحة، ولم تظهر عليه سنه الكبيرة. وتوقف أمام كايسي فربتت برفق على عنقه، بينما وضع أنفه في جيوب ردائها، فضحكت وأخرجت قطع السكر وقدمتها له.

«إنه يقرب من سن السابعة عشرة ولا تبدو عليه سنه».

ونظرت كايسي إلى فلينت لتعرف رأيه واستطردت قائلة:

«كان أول حصان لي، أول حصان لا يحتاج للسوط حتى يجبر على العدو بسرعة، كان سريعاً كالريح لذا أسميته «ميركوري» كاسم البطل الروماني ذي الأجنحة في قدميه».

ونظرت «كايسي» إلى «فلينت» مترددة خشية أن يعتبرها تافهة أو بلهاء لكثرة كلامها، لكنه كان يرقبها باهتمام كبير. واستطردت تقول:

«لقد كنت كالصبي الشقي».

فضحك وقال:

«كنت؟...»

لكنها كانت ضحكة رقيقة أمكنها أن تشاركه فيها.

«كنت أتصور أن «ميركوري» هو هندي، فكنت أركبه بدون سرج أو لجام بل كنت أوجهه بركبتيّ وأنجح في ذلك معظم الوقت».

«إن شكله رائع بالنسبة لسنه».

«بدأت أسنانه تتآكل».

وظهرت في صوتها نبرة حزن وهي تقول:

«قال أبي هذا الربيع إن «ميركوري» سيفقد كل أسنانه بانتهاء الصيف القادم فستتآكل كلها حتى تصل للثة».

ثم قالت بحماس رغم تقطيبة بدت في جبينها:

«إنه يحبُ الجري بحرية، لكني متألمة لليوم الذي سيضطر فيه «ميركوري» إلى تناول الأكل بدلا من حشائش المرعى الوارفة».

وعاد الحصان يقترب من جيوبها بحثاً عن مزيد من السكر. وعندما تأكد من عدم وجود السكر ابتعد وجرى نحو التلال من حيث أتى.

وقال «فلينت»:

«يجب أن يحدث ذلك يوماً ما».

وشعرت «كايسي» بأنه يشاركها شعورها ومخاوفها.

«نعم، أعلم ذلك، إذ أنه عاش حياة عريضة».

وابتسمت وهي تقول عبارتها الأخيرة، فقد علّمتها الظروف في المزرعة أن دورة الحياة لا نهاية لها، وأن أحداً لا يستطيع إيقافها أو التعرض لها. كما تعلمت أن تتقبل الأشياء التي ليس في وسعها تغييرها، رغم أن ذلك لم يجعلها تتقبل الأمور بسهولة.

كانت تجربة جديدة بالنسبة لها أن تكلمه بهذه الحرية وهذه السهولة، حرية سببت لكايسي الاضطراب لكنها وجدتها ممتعة، فقد أشعرها «فلينت» بأهميتها في هذه اللحظات القليلة. وربما كان هذا هو السبب لشعورها بالوحدة عندما تركها وانصرف.

صعدت «كايسي» درج الشرفة كل درجتين معاً. انها أخيراً وبعد مقاومة طويلة، تقبلت «فلينت» كزميل لها في المزرعة. ومما ساعد على ذلك توافق اهتماماته مع اهتماماتها في العمل لمصلحة المزرعة. واكتشفت «كايسي» متعة جديدة في العمل جنباً إلى جنب معه، وهو شعور بالرضى لم تعرفه من قبل. كما لاحظت أن إعجابها «بفلينت» يتزايد، ولكنها ظلت تحاول أن تخفيه، لكنه أخذ في الظهور شيئاً فشيئاً. وعندما فتحت باب المطبخ سمعت أخاها «مارك» يقول بحدة:

«كلا... كلا... هذا مستحيل».

وكان واقفاً أمام المائدة وفي يده ورقة أخذ يقرأها ويهز رأسه بشدة، ونظر بوجهه المضطرب إلى «كايسي» وهو يقول عند سماعه وقع أقدامها:

«كيف تفعل أمي بي ذلك؟»

«ما الذي بالورقة؟»

ومدت «كايسي» يدها للورقة، وبطرف عينيها رأت «فلينت» يدخل إلى الغرفة وقال شارحاً الموقف بينما أخذت «كايسي» تقرأ الرسالة:

«حضرت السيدة جراسيك ظهر اليوم وعرضت على والدتك أن تصحبها إلى

سكوتسبلاف لزيارة والدك بالمستشفى، وتركت هذه الرسالة تشرح فيها سبب عدم وجودها بالمنزل للعشاء الليلة».

وألقى مارك نفسه في كرسي المطبخ قائلاً:

«لا يمكنني أن أكل الطعام الذي تعده أختي، لقد تحملته أسبوعاً كاملاً أثناء غياب أمي في المستشفى مع أبي، وأعتبرها معجزة أنني لم أمت من التسمم».

فصاحت فيه كايسي قائلة:

«مارك...»

ولم يمكنها التغلب على حمرة الخجل التي علت وجهها وهي تنظر إلى تعبيرات الرضى التي تجلت على وجه فلينت وهو يستمع إلى ما يقوله مارك.

«أؤكد لك يا فلينت أنك لم تصادف في حياتك طاهية أسوأ من كايسي».

وتمنت كايسي لو أمكنها أن تسد فم أخيها لتوقف سيل كلماته المتدفقة المحرجة لها.

«حدث مرة أنها حاولت أن تعد لنا جيلو فوضعت فيه كثيراً من الماء بحيث اضطررنا لشربه!»

وعندما لاحظ فلينت الحرج والغضب المرتسمين على وجه كايسي ضحك وقال:

«يحسن أن نغيّر الموضوع يا مارك، قبل أن تضطر للدفاع عن نفسك. فقد قررت أنه بدلاً من تعرّض أختك للوقوف أمام الموقد الساخن بعد عملها الشاق طول النهار، أن نذهب إلى فورت روبنسون لتناول العشاء في الخارج الليلة».

ففرح مارك وقال:

«فكرة هائلة».

وسألها فلينت قائلاً:

«هل هذا الاقتراح يناسبك يا كايسي؟»

ولأول مرة في حياتها تمنت كايسي لو أنها أتقنت الطهي مثل أمها. لكنها

أومأت برأسها موافقة. وتمتمت أنها تريد أن تغير ملابسها، وهربت من الغرفة قبل أن تفضحها دموع الخجل. وتمنت كايسي لو أنها اهتمت أكثر باختيار ملابسها. حقاً كان منظر بنطلونها الأبيض وبلوزتها ذات المربعات الحمراء والياقة ذات الكرانيش، جميلاً، لكن شكلها بصفة عامة كان يشبه فتاة ريفية ساذجة. وتنهدت شاعرة بالندم لأنها لم تظهر بمظهر يليق بها كما ظهر فلينت، وأراحها أنها تركت حذاءها الطويل ولبست عوضاً عنه صندلها الأبيض الوحيد.

وبينما كان مارك يتقدمها إلى المبنى الذي كان في وقت من الأوقات ثكنات للجند، ثم تحول إلى نزل ومطعم للسياح، أخذ يقص على فلينت تاريخ الحصن القديم.

«كان هذا المبنى الأبيض الكبير مقراً للقيادة، لكنهم يستخدمونه الآن كمتحف. وكان هذا الحصن مشهوراً ليس فقط أثناء استقرار المستوطنين في الغرب، بل في أثناء الحرب العالمية أيضاً».

عرفت كايسي أن مارك أصبح مبهوراً بتاريخ (فورت روبنسون) ولم يأبه إذا كان فلينت مهتماً به أم لا، فقد أصر على أن يعرفه بتاريخ الحصن لذا استمر مارك يقول:

«على جانب الآخر من الطريق، أي عند دخولنا لفورت روبنسون يوجد المكان الذي قتل فيه الزعيم كريزي هورس وهو يقاوم الجنود الذين حاولوا وضعه في السجن. كما أنه المكان الذي لجأ إليه الهنود عندما هربوا من مستوطناتهم. وعندما رفضوا العودة وعاقبوهم بتجويعهم لارغامهم على الرجوع شتاء، حاربوا أعداءهم وخرجوا من الحصن. وهي معلومات معروفة لمعظم الناس».

وضحك فلينت متجهاً نحو كايسي وهو يفتح الباب الكبير المؤدي للمطعم.

«كيف توقف سيل كلماته؟»

«لا تستطيع...إلا إذا نفذ وقوده!»

وألقت إلى أخيها نظرة كلها انتقام ومداعبة.

وبمجرد دخول ثلاثتهم المطعم وجلوسهم، انقضّ على مارك صبيان أشقران وقال أطولها وهو يضرب مارك على ظهره مداعباً:

«كنا نتكلم عنك».

وضحك مارك وهو يحاول أن يتفادى ضربة أخرى من الصبي الآخر وقال:

«ماذا تفعلان هنا؟»

«أقنعنا والدنا أن يصحبنا إلى السينما بعد أن فضلت أمنا الذهاب الى سكوتسبلاف».

وحاولت كايسي جاهدة أن تخمّن من من توأمي جراسيك هو المتحدث، وقال مارك وعيناه تضحكان:

«لقد أخذت والدتي معها، وتركتني تحت رحمة طهي أختي، حتى أنقذني فلينت».

«بعد أن تنتهي من الطعام...أو الأفضل أن تأتي لتأكل معنا...»

وجذب أقصر التوأمين ذراع مارك ليأخذه معه إلى مائدتهم، مؤكداً دعوته له. وأضاف قائلاً:

«يجلس أبي هناك، وقد طلبنا ما نريد من طعام. وتستطيع أن تذهب للسينما معنا بعد العشاء».

فنظر مارك إلى كايسي مستأذناً في الذهاب مع صديقيه، واللهفة تلمع في عينيه فأومأت له قائلة:

«لا مانع طالما يوافق السيد جراسيك على توصيلك للمنزل».

فطمأنها أطول التوأمين قائلاً لها:

«إنه لن يمانع».

ودام الصمت خلال الجزء الأول من العشاء بعد انصراف الصبية. وبالرغم

من غضبها من أخيها، تمنت كايسي لو كان معها ليبدد حدة السكون الذي أثار قلقها.

وأخيراً قال فلينت وهو يرقب الاحمرار المفاجىء في وجنتيها:

«أنت صامتة الليلة صمتاً مطلقاً. أرجو ألا تكوني ضقت ذرعاً بمداعبة مارك، فأنت تعلمين أن كل الاخوة يمرحون هكذا فهم يحبون مشاكسة الأكبر منهم سناً».

«كلا لم أضق به، فهو يداعبني هكذا طوال الوقت».

وكان هذا التردد في إنكار حقيقة شعورها هو السبب في صعوبة مواجهة نظراته.

«فعلاً...الواقع أنني لا أعرف الطهو، ولا حتى كيف أغلي الماء».

«وهل يعرف سميتي كيف يطبخ؟»

«سميتي؟ كيف لي أن أعرف ذلك؟»

وواجهت نظراتها المندهشة نظراته بصرامة.

«وما علاقة ذلك بي؟»

«فهمت مما سمعته أن المتفق عليه هو أنكما ستتزوجان. ومن الأوفق أن يعرف أحدكما كيف يطبخ».

وارتفع جانب من فمه في سخرية واضحة وعلقت كايسي على كلامه بتهكم:

«إذا كنا ننوي الزواج، الأمر الذي لن يحدث، فليس من شأنك إذا كان أحدنا يجيد الطهي أم لا».

ولم تقبل كايسي دعابته بخصوص عدم إتقانها لفن الطهو. ومما أثار رغبته في مضايقته تهكمها الذي بدا في كلماتها.

«ما رأيك في قدرة صديقاتك على الطهو؟»

«في استطاعتهن جميعاً إعداد وجبات لذيذة نأكلها أمام شاشة التليفزيون».

ولمعت عيناه بابتسامة جريئة برغم أن بعضاً من تعبيرات وجهه ظلت جادة.

وشعرت أنه لا شك كان يسخر من غضبها مما زاد من ثورة كايسي عليه

«لا بد أن شخصاً يتدفق رجولة مثلك يجذب إليه الفتيات ذوات الأنوثة الصارخة».

كانت الابتسامة التي تشع من وجهها تتعارض مع الغضب المنبعث من عينيها الداكنتين.

«أجمل الفتيات ذوات الشعر الطويل والفساتين البيضاء. كما يصلح منكباك العريضان لاسناد رؤسهن عليهما».

«أرى أنك تتحولين ثانية إلى زهرة مليئة بالشوك».

«إذا كان هذا صحيحاً، فهي غلطتك».

وهدأت ثورتها تحت تأثير دفء ابتسامته التي لا تقاوم.

«يعجبني أن أراك غاضبة، إذ يتحول وجهك إلى خليط من عيون صادقة ووجنات متوهجة، وهو خليط جذاب جداً».

وكانت هذه أول عبارة مجاملة تتلقاها كايسي من فلينت، وكان لها وقع مثير على نفسها، فخفضت نظرها إلى صحنها، وتمنت لو كانت من الفتيات المجربات اللواتي يعرفن كيف يقابلن مثل هذه المجاملة العابرة بعبارة مرحة. قال فلينت مقترحاً:

«هيا نتمشى حول الحصن قبل العودة إلى المزرعة».

وقام من أمام المائدة واستدار حولها ليسحب مقعد كايسي من تحتها. وكانت تشعر باستجاباتها الجديدة له بحيث لم تقو إلا على إمالة برأسها بالموافقة على اقتراحه. وانتظرت حتى دفع الحساب، ولم تفتها نظرة الاعجاب التي ألقتها عليه الفتاة الجالسة أمام الطاولة. وأخذت تسائل نفسها: ترى كيف يكون الحال، إذا كانت هذه الفتاة صديقة فلينت، وهي معه الآن في موعد غرامي؟ وبسرعة حاولت أن تبعد الفكرة عن خاطرها وهي تقنع نفسها بأن رجلاً مثل فلينت لا يمكن أن يهتم بفتاة من الريف مثلها. إلا أنها كانت فكرة مثيرة لم تستطع أن

تتخلص منها تماماً.

«هل نسير في الطريق الذي كان يستخدم للاستعراض؟»

ألقى فلينت هذا السؤال وهو يقف في شرفة المطعم الواسعة. وبمجرد موافقتها، نزلا الدرج ومشيا نحو المساحة البيضاوية التي تتوسط المباني.

وكانت الشمس دافئة والنسيم العليل يحمل رائحة التبن حديث الجز. وكانت هناك حركة قليلة حول المساحة البيضاوية. كما كانت أصوات السيارات والسياح تسمع من بعيد. وفي الركن القريب منها رأيا الساري والعلم الأمريكي وهو يرفرف في الهواء.

وبينما هم يمشيان رويداً رويداً أمام المبنى الذي يضم محطة الحريق، قالت كايسي:

«من السهل تصوّر هذا الجانب من الحصن عندما كانت تحده ثكنات الفرسان. وأحياناً أغمض عيني وأسمع في ذهني النداءات العسكرية».

«كان مارك محقاً في رأيه عن مكانة فورت روبنسون التاريخية، فقد كان حصناً هاماً لأكثر من مائة عام».

وتهادت خطواتها عندما اقتربا من مقر قائد الحامية، وتمهلت كايسي قليلاً وقالت:

«أرجو ألا يكتشف كثير من الناس هذا المكان. وأنا لا أعترض على مجيء السياح لزيارات وركوب الخيل في نفس المكان الذي كان يركب فيه الأبطال الأولون، لكن كل ما يهمني ألا يصبح مكاناً تجارياً. فروح الحصن الأصلية مازالت باقية، ولا أريد لها أن تتغير».

«بدأ الأمريكيون يعرفون أن هناك أشياء لا يمكن استغلالها لقيمتها المادية، بل يجب أن تبقى بلا تغيير حتى تستطيع الأجيال القادمة أن تتذوق قيمتها الجمالية».

هكذا عقب فلينت على ملاحظة كايسي ورأيها في الأماكن الأثرية،

ونظر إليها والابتسامة تعلو فمه وقال:

«هذه هي كل الجدّية التي أقوى عليها الآن. فالليلة جميلة، والموقع يوحي بالرهبة والصحبة ممتعة، لذا أرفض أن أفسد كل هذا بالحديث عن أشياء أخرى من صنع البشر».

واستقرت يده على خصرها بطريقة طبيعية وتلقائية، غير عابىء بالثورة التي أحدثتها هذه في داخلها، فقلبتها، وقلبت مشاعرها رأساً على عقب. وبرغم أن فلينت غيرّ الموضوع، إلاّ أن كايسي لم تستطع التركيز على أي شيء، وكان كل تفكيرها وشعورها مركزاً عليه كرجل.

٨ ـ الجار في سلة المهملات

عرفت كايسي الكثير عن فلينت في تلك الليلة أثناء نزهتهما حول فورت روبنسون وأثناء رحلة العودة، تحدث فلينت عن والديه وأجداده وإخوته الثلاثة وأخته الصغرى. وشعرت كايسي أن تقاربهما يزداد شيئاً فشيئاً، إلا أن وصولهما إلى أنكور بار قد أوقف تقاربهما. وكان سميتي في انتظار كايسي وقد بدا عليه الغضب. ولم يحاول إخفاء اعتراضه على مصاحبتها فلينت للعشاء بالرغم من أن الدعوة بدأت في الواقع لثلاثتهم إذ كان مارك معهما. ولأول مرة تبرمت كايسي من موقف سميتي الذي يدل على أنانيته ورغبته في الاستئثار بها.

ومما زاد الطين بلة أن فلينت سلّم بأحقية سميتي في صحبة كايسي، وانسحب بهدوء إلى مكتبه. فالأمسية التي كانت ممتعة، انتهت نهاية سيئة. فصداقة كايسي لسميتي كانت حقيقة واقعة، إلاّ أن كايسي لم تتبين شعور فلينت الحقيقي نحو تلك العلاقة أو اهتمامه بها.

وحاولت أن ترغم نفسها على الاعتقاد بأنها مجرد تسلية بالنسبة لفلينت. أما شعورها نحو فلينت فكان من أصعب الأمور التي واجهتها في الأيام الثلاثة التي انقضت منذ تلك الليلة.

وكان هذا هو السبب الذي دعا كايسي إلى امتطاء صهوة جوادها وذهابها بمفردها إلى بوكاميدو، لأنها كانت بحاجة إلى فترة تتفهم فيها مشاعرها وتضع الأحداث الأخيرة في أوضاعها الحقيقية. أما الهدف الثاني من رحلتها فكان لتفقد

العجول الجديدة التي ولدت في نفس السنة. وصعدت كايسي إلى قمة التل وأوقفت حصانها تالي على بعد أقدام من حافة المنحدر لتمتع عينيها بمنظر التلال المترامية الجميلة. ولفت نظرها شيء بني اللون يقاوم في أسفل المنحدر ويبدو أنه يتقلص من الألم، وحمل إليها النسيم صوت أنة استغاثة خافتة.

ولم تكن كايسي بحاجة لأن تنبهها أذنا حصانها المتوترتان إلى أن الصوت كان آتياً من الشيء البني الذي رأته. وأدارت حصانها نحو المنحدر وتركته يختار طريقه إلى العجل الجريح القابع في السفح. وكانت عينا كايسي تجوبان التلال بحثاً عن البقرة الأم، مدركة أنه لا يوجد أخطر من بقرة تحمي عجلها، والغريب أنه لم يكن هناك حيوان آخر في المنطقة كلها. ولم تجد كايسي غير تفسير واحد، أن العجل هو وليد بقرة عمرها سنة واحدة بحيث لم تكتمل فيها بعد غريزة الأمومة.

وأوقفت كايسي حصانها على بعد مائة قدم من العجل ورأت حلقة من الأسلاك الشائكة قد التفت حول أقدامه بحيث سال الدم على الجزء الأبيض منها، وشعرت كايسي أن عليها التصرف قبل فوات الأوان. فالرمل الداكن عند أقدام العجل، وعدم قدرته على المقاومة، دلا على أن الحيوان الصغير نزف كثيراً. وكان كل همها أن تخلصه من الأسلاك الشائكة وتحمله إلى مبنى المزرعة فوق سرج حصانها.

نزلت كايسي عن ظهر حصانها، واقتربت منه وفي يدها مقص الأسلاك الذي تحتفظ به دائماً في جراب سرج حصانها. ونظر العجل إلى كايسي بعينين كبيرتين يملأهما الألم، وهي تقص الأسلاك الشائكة وتخلص أقدامه منها، محاولة تفادي الشوك. وتمنت لو أنها أحضرت معها القفاز الجلدي السميك الذي تركته على رف المطبخ. وأخيراً خلصت العجل من قيده، لكنه كان خائر القوى بحيث لم يستطع التمتع بحريته.

حاولت كايسي حمل العجل الثقيل بين ذراعيها. وبعد جهد كبير أمكنها

النهوض على قدميها. لكن العجل صدرت منه صرخة خوف واحدة وخطت كايسي نحو حصانها الذي تركته على بعد خمسين قدماً. وفجأة رأت رأس الحصان يلتفت نحو التل الواقع على يسار كايسي وفي الوقت الذي حولت فيه نظرها إلى تلك الجهة، سمعت خواراً قادماً من جهة التل.

وانتاب كايسي الخوف وغاص قلبها إلى قدميها، وهي ترى البقرة الأم، تعدو من فوق التل بكل سرعتها. في المزرعة بقرة واحدة لها قرون طويلة ملتوية مثل قرون هذه البقرة المتجهة نحوها في هجوم ينذر بالخطر. إنها من نوع ينتسب إلى صنف بقر ولاية تكساس ذي القرون الكبيرة، وكان والدها يستخدم ذلك الصنف منذ سنوات عندما كان يقوم ببعض أبحاث تهجين الأجناس. وكان مارك قد أطلق عليها اسم المرأة المجنونة لشراسة طبعها. وبنظرة سريعة عرفت كايسي أن المسافة بينها وبين البقرة لا تدع لها فرصة الوصول للحصان، وهي تحمل العجل في حضنها.

ومع ذلك أسرعت كايسي نحوالحصان والعجل مازال بين ذراعيها. لكن صوت حوافر البقرة وهي تدوس على الأعشاب اختلط مع أصوات قرقعة جلد سرج وحوافر جواد يقترب منها فتطلّعت بطرف عينها، وبقلب كاد يقفز من حلقها من شدة الخوف، رأت جواد فلينت المنقط وهو يسرع نازلاً من التل في اتجاه البقرة. وامتد حبل من يد فلينت في آخره خيّة كبيرة استقرت بمهارة فوق القرنين المتفرعين. وبجرة واحدة من يده دفعها بعيداً عن طريقها وهي تتجه مسرعة نحو كايسي. وصرخ فلينت يقول:

«السيارة والمقطورة بجانب الباب الغربي».

وكان حصانه يحاول جاهداً أن يسيطر على البقرة التي أخذت تخور وتقاوم.

ولم تضع كايسي وقتاً في وضع العجل على سرج حصانها الذي امتطته وأسرعت به بعيداً. وعندما وصلت إلى السيارة أعدت للعجل مكاناً في مؤخرتها، وأنزلته برفق فيه ووضعت حصانها في المقطورة. وبمجرد انتهائها، وصل فلينت

إليها وهو يعدو بحصانه من فوق التل.

وجالت عيناه المضطربتان فوقها بسرعة، ولم تساعد نظراته العاصفة في تهدئة الرجفة التي أصابت ركبتيها بالضعف والهزال. وأدخل فلينت حصانه إلى المقطورة وأغلق بابها ثم عاد إلى كايسي. وبدت النظرة الشرسة المرتسمة على وجهه كأنها منقوشة على صخر بخطوطها العميقة الغائرة.

قالت كايسي لتنقذ نفسها من وقع العاصفة التي يهددها بها فلينت:

«سأركب في الخلف مع العجل».

وركب فلينت في مقدمة السيارة وأغلق بابها بعنف شديد، وقفزت السيارة عندما أدارها وانسابت فوق الطريق الوعر في طريقها إلى المنزل.

وقالت كايسي برفق وهي تهدىء العجل:

«سيصبح كل شيء على ما يرام».

قالتها وهي تعيد وضع العجل بحيث أصبح نصفه فوق حجرها، وفي الواقع كانت تهدىء من روع نفسها، أكثر من تهدئتها للعجل.

وبحاسته العجيبة، قابلهم سام ولفر عند البوابة الرئيسية، وقفز إلى مؤخرة السيارة مع كايسي، وأخذ يفحص الجراح الموجودة في أقدام العجل وعندما حمله خارج السيارة قفزت كايسي وراءه لتتبعه، فقد كانت تفضل أن تكون في أي مكان غير هذا المكان، حتى لا تضطر إلى مواجهة تلك العينين الرماديتين الصارمتين.

«كايسي أريد التحدث إليك».

وبالرغم من هدوء صوت فلينت إلا أنه لم يكن هناك مناص من تلبية طلبه. فقالت كايسي وهي تشير نحو سام الذي يبتعد بسرعة بحمله الجريح:

«لكن...العجل...»

«سيعتني سام بأمره».

وقررت كايسي أن أفضل دفاع هو الهجوم، لذا جمعت أنفاسها وقالت:

«استمع إليّ يا فلينت ماكاليستر، لقد اجتزت لتوي تجربة قاسية، وليس لديّ أي استعداد إطلاقاً للاستماع إلى نصائحك ومحاضراتك. فكل ما أريده هو العناية بذلك العجل، فليس لدينا أي استعداد لأن نفقد شيئاً من مواشينا».

فامتدت يده وسحب ذراعها ليعيدها إلى مكانها وهي تديرله ظهرها لتنصرف:

«استمعي إليّ يا كايسي غيلمور! ألم تتعلمي شيئاً من حادث والدك؟ فلو لم يرك سام وأنت تتجهين بحصانك إلى حيث كنت، لما عرف مكانك. ما الذي دفعك لمحاولة أخذ العجل الجريح من أمه بمفردك؟»

فثارت كايسي وحاولت الدفاع عن موقفها وقال:

«أولاً، كان العجل جريحاً جرحاً بليغاً، وثانياً، لم تكن البقرة موجودة عندما وصلت إلى العجل، وظننت أنها بقرة عندها سنة واحدة ولا تفهم معنى الأمومة».

ثم جذبت ذراعها منه وأتمت كلامها قائلة:

«وثالثاً، لا حق لك في تأنيبي».

وظهر في صوته ووجهه ما ينم عن شعوره بالسرور إزاء الثورة المفاجئة التي قابلته بها. ومما زاد من ثورتها أن غضبها قد بعث فيه الدهشة إذ قال:

«ليست هذه ألفاظاً تليق بسيدة مهذبة مثلك».

«لست مهذبة، بل زهرة شائكة، ألا تذكر ذلك؟»

ومالت برأسها لتنظر بتحد إلى عينيه الرماديتين تحت حاجبيها المرفوعين في تهكم. لكنه تمتم قائلاً:

«ترى ماذا وراء هذه الأشواك؟»

وفي حركة سريعة قبضت يداه على معصمها وجذبها نحوه بينما استقر فمه الآمر على خدها. وفي محاولة غاضبة للمقاومة، رفعت يديها إلى صدره لتدفعه عنها غير أن دفء انفاسه العجيبة سرى في جسدها وسلبها إرادتها وأي تفكير في المقاومة، واجتاحتها رغبة لا تقاوم في الاستجابة له. فشعرت كايسي بأصابعها وهي تضغط على قميصه وعلى صدره ذي العضلات القوية المفتولة. وانتشر في

جسمها ضعف نابض وشعرت أنها تغوص في دوامة من السعادة، وودت لو استمتعت بطعم كل لحظة منها. وقد هال جانباً منها شدة الاستجابة التي أثارتها حركته فيها. وعندما رفع يديه عنها، ترك كايسي في ضياع كبير، وحاولت أن تبلع ريقها وتقاوم انفعالها العنيف، فقد أضرمت فيها تصرفاته ناراً انعكس لهيبها في عينيها. وقال فلينت بصوت أجش نزل على كايسي كالماء البارد:

«أقسم أنك لم تعانقي سميثي هكذا قبل الآن».

«لماذا تقول ذلك؟»

«لأنك لو فعلت؛ لكان معنى ذلك أنك متزوجة أو لك علاقة برجل. وأعرف أن الافتراض الأول غير صحيح، وتفضح لي عيناك البريئتان أن الافتراض الثاني غير صحيح أيضاً».

فنظرت كايسي إلى عينيه الواثقتين. وشعرت بالخجل لمعرفته الكاملة بها، ولامت نفسها لأنها استجابت بضعف واستسلام. وبكى عقلها الباطن، لكن عينيها أخذتا تلتهمان جاذبية وجهه وهي تقول له:

«من حظك أن سميثي لم يكن هنا ليرى ما فعلته».

«إنه شيء متبادل يا كايسي».

فزاد غضبها وضيقها، واختلطت عليها مشاعرها المضطربة. فلم تعرف هل تذوب بين ذراعيه أم تصفعه على وجهه، فتملكتها الحيرة لا تدري ماذا تفعل، ثم استدارت وهربت تتبعها ضحكة كلها شعور بالنصر.

أنبت كايسي نفسها قائلة أنها يجب ألا تدع نفسها تنجذب لفلينت ماكاليستر أو تقع في حبه، وهذا هو ما سيحدث إذا لم تأخذ حذرها. وهي نصيحة في محلها، قالتها لنفسها حتى وهي تحملق فيه وهو جالس أمامها في غرفة الطعام التي تستخدمها الأسرة كلها. واستدارت العينان الرماديتان نحوها وقال فلينت:

«ما رأيك في هذه الفكرة يا كايسي؟»

فتمتمت قائلة:

«آسفة، لم اسمع ما كنت تقوله»

وانفجرت شفتاه عن ابتسامة ساخرة، بينما لمعت عيناه عند رؤيته احمرار وجهها من الخجل المصحوب بالحرج.

«كانت والدتك تتكلم عن الحفل الذي سيقيمه آل غوردون مساء الجمعة، وقالت أنها لن تذهب لأن جون غائب، لكني أحبذ أن تذهب، بل وأن تذهب جميعاً كأسرة».

فنظرت لوسيل إليها بينما كانت تطوي مجموعة من الجوارب في حجرها وقالت:

«يحسن ألا أذهب. ويمكنكم ثلاثتكم الذهاب بدوني، إذ لا أرى أن من الصواب ذهابي و جون غائب عن المنزل».

فقالت كايسي وهي تحاول أن تتفادى وجه فلينت الجذاب:

«تعلمين أنك ستستمتعين بالحفل يا أماه، كما أنك تعلمين أن أبي يكره هذه الحفلات ولا يشترك في الرقص فيها، ومع ذلك لم يمنعك من الذهاب إليها».

وأضاف فلينت قائلاً:

«الذين ستقابلينهم هناك هم أصدقاؤك وجيرانك ولن يسيء أحد الظن فيما تفعلين، فأنت ستكونين في صحبة أبنائك، حتى و جون في المستشفى».

فوافقته والدة كايسي على كلامه قائلة:

«كلا...لن يفكروا في شيء...ولكن».

فأصر على رأيه قائلاً:

«لا تقولي ولكن، اتفقنا وسنذهب جميعاً، ولن نقبل منك أي اعتراض أليس كذلك يا كايسي؟»

ولم تستطع أن توقف رجفة الفرح عند اتفاق رغبتها، كما لم تستطع السيطرة على بريق عينيها وهي توافقه على رأيه. وسألتها أمها:

«هل قمت بأي ترتيبات لذهابك للحفل مع سميثي يا كايسي؟ لأنك إذا كنت

قد فعلت...»

وشعرت الأم بوخز ضميرها، وحرج موقفها، بينما حاولت كايسي أن تتذكر إذا كان سميثي قد طلب منها الذهاب معه أم لا، لذا قالت:

«إنني متأكدة أنه لم يفعل».

قالت هذه العبارة لرغبتها في اقناع نفسها أكثر من رغبتها في إقناع والدتها، وقالت عبارتها بحركة لا مبالاة من كتفيها وهي تضيف:

«لقد أصبح واثقاً من نفسه في المدة الأخيرة».

فابتسمت لها لوسيل غيلمور وهي فرحة بتصرفات ابنتها التي أخذت طابع الأنوثة وقالت:

«لا بأس، سأذهب معكم».

وقال مارك فجأة:

«ليتنا كنا نذكر شيئاً حسناً، فها هو سميثي قد حضر».

ودارت كايسي في مقعدها وهي تشعر بالعينين الرماديتين وهما ترقبانها. وقالت:

«سأذهب لأقابله عند الباب».

ولم يكن هناك داع لتلك العبارة، فقد اعتاد سميثي الدخول إلى المنزل وكأنه منزله، وحياها سميثي على درج الشرفة قائلاً:

«أهلاً، أيتها الجميلة!»

وقنت كايسي وهي ترد تحيته لو زال توتر أعصابها، وبدت ابتسامتها وكأنها أقل افتعالاً.

«إنك تبدين شاحبة اللون اليوم، فهل أنت بخير؟»

«أنا بخير».

غير أن ضحكتها التي أرادت أن تطمئن بها سميثي كانت مترددة فاستقرت عيناه على وجهها ولم يعجبه بتاتاً ما كان يفكر فيه.

«جئت لأتأكد من برنامجنا مساء الجمعة».

كما لم يعجبه اللون الذي صبغ وجهها فأضاف قائلاً:

«ستذهبين معي، أليس كذلك؟»

فتراجعت كايسي وقالت:

«إلى حفل آل غوردون؟ كنا نتحدث عنه».

وحاولت الابتسام في عينيه اللتين يحيرهما التساؤل.

«نجحنا أنا و فلينت في إقناع والدتي بالذهاب معنا. كانت ترفض الذهاب لوجود أبي في المستشفى».

واتسعت حدقتاه من الذهول والصدمة معاً وهو يقول:

«أنت و فلينت؟ أتعنين ستذهبين معه؟»

«سنذهب كأسرة، مارك ووالدتي وأنا...و...وفلينت».

لماذا كانت تشعر بالذنب وتأنيب الضمير؟ إنها لم تعد سميثي بأنها ستذهب معه.

«هل أصبح فلينت عضواً في الأسرة الآن؟»

ولم يحاول سميثي أن يخفي التهكم الذي ظهر في صوته والذي وجهه إليها عقاباً لها على تقصيرها في حقه. ثم أضاف قائلاً امعاناً في دفعها إلى فهم حرج مركزه:

«وما موقفي أنا؟ هل أنا مجرد جار قديم ألقيت به في سلة المهملات؟»

وشعرت بجرح كبريائها فرفعت ذقنها في تعال، وقالت محاولة تغيير الموقف إلى وضع أفضل:

«إننا نرحب بمجيئك معنا».

«كلا، أشكرك. فرفقة اثنين ليست كرفقة جماعة».

فثارت كايسي وقالت:

«لا حق لك في أن تكلمني بهذه اللهجة، يا دونالد سميث، فإنني لست ملكك.

ولا داعيَ للتهكم لمجرد أنني لن أذهب إلى الحفل معك».

«لا أمانع في تخليك عني في سبيل أسرتك يا كايسي، لكنني أعترض على رفضك إياي بسبب فلينت ماكاليستر. لقد حذرني جوني منه لكني لم أتوقع أن... لكن، ما الفائدة الآن؟»

فردّت بصوت خافت مرتعد:

«إن رفضي ليس بسببه إطلاقاً».

«كلا؟ ان الحقيقة مرتسمة على وجهك».

وتقدم سميتي منها ويداه تتحركان نحوها ثم أنزلها إلى جنبه بحركة يائسة وقال:

«كم كنت صبوراً معك! إنه لا يهتم بك يا كايسي، فقد جاب جميع أنحاء العالم، فما الذي سيعجبه في فتاة ريفية مثلك؟»

وأرادت كايسي أن تضع يديها فوق أذنيها حتى لا تسمع كلماته الجارحة، فكل ما قاله سميتي كان صحيحاً، وهي أفكار رددتها هي لنفسها مراراً من قبل. وأسوأ ما في الأمر أنها كشفت لفلينت عن ضعفها أمام جاذبيته وسحره، فهو الآن يعرف حقيقة مشاعرها نحوه واستعدادها للاستجابة له. ومما أثار خوفها احتمال وقوعها في غرامه الذي لن تجني من ورائه إلا الحسرة والألم.

٩ ـ الاميرة النائمة

كانت كايسي فرحة لأنها تجلس في المقعد الخلفي من السيارة، بينما أمها تجلس في المقعد الأمامي بجوار فلينت. وكانت حواسها المرهفة تشعر أمها بالحيز الضيق الذي يضمها في تقارب محبب، فالقوة الجذابة التي تنبعث من فلينت كانت تشدها طوال الأسبوع. حتى عندما كانت تريد أن تبتعد عنه. وكان الجانب العاقل منها يريد الابتعاد، بينما الجانب المتهور يتمنى أن يشجعها على الاقتراب منه. وشعرت كايسي كأنها طفل يلعب بالنار مبهوراً بلهيبها. ولم تكن خائفة من الحريق ذاته بل من التهام النار لها.

ولم تستطع كايسي ايقاف موجة الفرح التي غمرتها عندما فكرت في حفل الليلة الذي كان ينتظرها بما يحمله من مباهج ومفاجآت تتوق إليها. وكانت واثقة من أن فلينت سيطلب منها مراقصتها. وتذكرت دفء يديه حول خصرها وملمس جسده وهو يقرب جسمها. كما أيقنت أنها لن ترفض بل ستستمتع بكل لحظة من قربه وكل كلمة أو حركة تصدر منه.

وسمعت وهي تعتدل في جلستها حفيف الطيات العديدة للقمصان التي ترتديها تحت ثوبها الأحمر اللامع. والتفت فلينت إليها، وانهارت تحت تأثير نظرته الرمادية آخر آثار مقاومتها وهي تبتسم له بدلال وسعادة.

وقال وكأنه يفسر سبب التفاتاته إليها:

«أوشكنا على الوصول إلى مكان الحفل».

ورأت المصابيح اليابانية وهي مدلاة من الأعمدة المقامة في حديقة

غوردون الخلفية وقد وضعوا ألواحاً كبيرة من الخشب فوق الحشائش لتصبح حلبة واسعة للرقص. كما وضعت عربة من عربات التبن إلى جانب الحلبة لتكون منصة يجلس فوقها الموسيقيون. وكانت الموسيقى خليطاً من القيتار والكمنجات والأوكورديون والطبول ألحانها المرحة تملأ نسيم الليل وتبعث البهجة في أرجاء المكان، بينما مشت كايسي مع مارك وهما يتبعان فلينت وأمها في طريقهم من السيارة إلى مكان الحفل. وكان جيم كينجستون يقف أمام الميكروفون ويدق بقدمه على وقع الطبول، بينما هو يدعو الراقصين إلى طريقة الرقص شأن التقليد المتبع في الرقص التربيعي الأمريكي.

وفي خارج حلبة الرقص أخذ المدعوون يصفقون بأيديهم على النغم بينما أخذت تنانير الراقصات متعددة الألوان تلف وتدور في مربعين كبيرين. والراقصات يضحكن في مرح، بينما الراقصون يقودونهن في الرقص الذي أتقنوه بحكم الخبرة الطويلة. ووجدت كايسي نفسها تدق بقدمها بلا وعي، وامتد نظرها إلى فلينت الذي استجاب إليها بابتسامته الساحرة.

«إنك تحبين الرقص؟»

وكانت حقيقة يعلنها، أكثر منها سؤالاً.

«هذه هي صفة الأنوثة الوحيدة في شخصيتي».

وكأن جو الحفل جعلها أكثر جرأة مما كانت. فلمعت عيناها وهي ترفعهما إليه ضاحكة.

وكانت أمها قد انشغلت بالسيدة غوردون، بينما لمح مارك صديقيه التوأمين، في الناحية الأخرى من حلبة الرقص. لذا وجدت كايسي نفسها بجانب فلينت وهو موقف استهواها بسحره وجاذبيته، لكنها شعرت بأنه لا يخلو من الخطر.

«هل غضب سميثي لأنك لم تحضري بصحبته؟»

ولم تتوقع كايسي هذا السؤال من فلينت فأجابته ببساطة، وقد ارتاحت

لمرور عينيه على وجهها ليثير النار التي في داخلها:

«نعم، وهو يلومك على ذلك ويعتبرك السبب فيما حدث».

فظلّ يحدّق فيها، وخافت من حدة نظرته التي أثارتها في الوقت نفسه. وشعرت كايسي بضآلتها، ليس فقط بسبب طوله الفارع بالنسبة لها، بل لتأثيره الجارف عليها، وقدرته على إثارة رغبة فيها لم تتوقعها في نفسها من قبل.

«ولا بدّ أنه حذرك مني».

قالها فلينت بهدوء وهو يرقبها بإمعان ليعرف أثر كلامه عليها.

«وقال لك إنني أكثر انغماساً في الأمور الدنيوية وأكثر خبرة منك بالشؤون العاطفية، وأن بامكاني إيلامك».

فأومأت له كايسي برأسها.

«هذا صحيح يا كايسي. فكل كلمة قالها سميثي كانت في محلها».

فارتجفت أهدابها لتخفي الألم الذي طعن صدرها كالسكين، قبل أن تبتسم ابتسامة عريضة وتقول:

«وما الضرر من ذلك؟ ففي هذا الزمن تتعرض المرأة لتجربة أو تجربتين خطرتين. ولكل رجل الحق في بعض المغامرات قبل أن يستقرّ بالزواج».

فضحك ضحكة هادئة، آسرة وقال:

«انك ساحرة وجذابة وتضعين ثقتك في الناس».

وبعثت اليد التي لمستها ألسنة اللهب فيها وهو يجذبها الى الحلبة. انها كالمسحورة، بل كالأميرة النائمة التي أفاقها الأمير من نومها. ولم تستطع نظرة سميثي الغاضبة، وهو واقف بجانب حلبة الرقص أن تفتت السعادة التي كانت تشع من وجهها. وراقصها رجال آخرون، كل بدوره، حسب قواعد خطوات الرقص الأمريكي التقليدي الجماعي، إلا أنهم كانوا جميعاً كالأشباح، بحيث لم يجذبوا انتباهها.

وانتهت الرقصة وسط الضحك والصياح والمرح، واستبقى يد كايسي في

يده، واستقرت عيناه الباسمتان على وجنتيها المتوردتين. وتعرّف كثير من الناس عليه، وتقدموا إليه ليقدموا أنفسهم له. وتقبل فلينت صداقتهم بينما وقفت كايسي تتعجب من طريقته المهيبة التي توحي بالألفة، شأن أهل سكان غرب أمريكا. وامتلأ قلب كايسي بالفخر به، بينما أخذت بنات أصحاب المزارع ينظرن إلى يدها وهي في يد فلينت وفي أعينهن الحقد والحسد.

ولم تكن بريندا فيرلي، التي لم ترها كايسي منذ زمالتهما معاً في الدراسة الثانوية، لم تكن من النوع الذي يضيع الفرصة أو الذي يتردد من التقدم لمثل هذا الرجل وجذب نظره، فهي فارعة القوام شقراء اللون. فمشت نحو كايسي وفلينت، ومشى وراءها سميتي وقد بدا عليه الغضب. وكانت بريندا معتدة بنفسها حتى منذ أيام الدراسة، وتسيطر عليها غطرسة منعت كايسي من التقرب إليها واتخاذها صديقة لها. والآن وبعد سنوات في الجامعة، زادا من شعورها بالعظمة والمباهاة على زميلاتها.

«كنت أعتزم أن أزورك يا كايسي».

واستسلمت كايسي لضمّة من بريندا تحمل كل معاني الرياء واستطردت تقول:

«لكنك تعرفين كيف يضيق الوقت عندما أحضر لقضاء بضعة أسابيع قصيرة، ولا يمكنني زيارة جميع الأصدقاء. وسررت عندما علمت بأن آل غوردون يقيمون هذا الحفل، فهو فرصة مواتية لرؤية جميع الناس.»

ونظرت إلى فلينت نظرة إغراء، وقالت له:

«لا بد أنك الرئيس الجديد القادم من أوغالالا، فقد كان سميتي يحدثني عنك يا سيد ماكاليستر».

ولم تهتم كايسي كثيراً وهي ترقب نظرة فلينت المندهشة وهي تمر على جسم بريندا المشوق. وقدمت نفسها إليه قبل أن تتيح لكايسي الفرصة لكي تقوم بذلك الواجب بنفسها.

«اسمي بريندا فيرلي، كنت مع كايسي في المدرسة. وطبعاً أرسلني والدي إلى الجامعة، لذا لم نكن على اتصال منذ ذلك الوقت».

وقالت كايسي لنفسها وهي تمقت الطريقة التي كانت بريندا تغازل بها فلينت بجرأة: إنها مازالت تحتكر الحديث لنفسها وتتحف فليت بدرر كلامها النفيس! وابتسم فلينت ولمعت عيناه ببريق غريب، وزادت يده ضغطاً على يد كايسي وقال:

«أرجو المعذرة، فقد وعدت كايسي بأن أراقصها رقصة البولكا».

وقبل أن تعترض بريندا، أخذ كايسي بين ذراعيه ودخل بها حلبة الرقص. وكانت نظرة عينيه تقول: هذه ليلتنا. كان ذلك كافياً لأن يرفع كايسي إلى قمة من السعادة لم تحلم بها من قبل. فمجرد فكرة تفضيلها على فتاة جميلة مثل بريندا، التي تعتبر من شاكلته ومن دنياه، جعلت رأسها تدور من الفرح، وشعرت كأن قدميها لا تلمسان الأرض. كما توقف الزمن بالنسبة لها وأصبحت قمة العالم تحت قدميها. ولم تشعر كايسي حتى بالموسيقى، لأن النغم المرح السعيد بدا وكأنه ينبعث من داخلها. وكان لضغط ذراعه حول خصرها دفء متوهج بعث في وجنتيها لوناً وردياً. كما كانت عيناه تعدانها بأشياء جميلة بعثت السعادة في كل كيانها، وهو يدور بها في سلسلة من خطوات الرقص التي لم يسبق لها أن رقصتها، إلا أن انسجامهما معاً كان تاماً بحيث لم تخطىء كايسي في حركة منها.

وعندما تلاشى آخر نغم من الأوكورديون، كانا في الجانب القصي من حلبة الرقص وبعيدين عن بقية المدعوين. وكانت كايسي تلهث من السعادة لا من التعب. فاليد التي ظلت حول خصرها بعد أن توقفت الموسيقى دفعت بها نحو الجزء المظلم من الحديقة. وتركت كايسي نفسها تنساق لهذه اللحظة الساحرة ولم تستطع مواجهة نظرته خشية أن يرى فرط سعادتها وتلهفها أكثر منه. ورأت كايسي سوراً أمامها فسابقته إليه والسعادة تغمرها، وسألته والضحكة على

شفتيها تفصح عن انفعالها، بعد أن استندت إلى السور وأمسكت بأعمدته.

«هل تجعل الفتيات يحلّقن هكذا دائماً من السعادة؟»

شعرت كأنها تطير في الجو ولا تربطها بالأرض إلا يداها الممسكتان بالسور. وابتسم فلينت وقال:

«إنها أفضل طريقة لمنعهن من دهس قدميّ أثناء الرقص».

واستقرت عيناه عليها لحظة قبل أن يخرج سيكارة من جيبه ويقدم إليها أخرى، إلا أنها رفضتها وفضلت أن تنظر إلى السماء، التي تزينها النجوم.

«لا بدّ أن لديك الكثيرات منهن، أعني الصديقات!»

ونظرت إليه في دلال من فوق كتفها، وتمنت لو لم يكن وجهه في الظلام حتى تستطيع أن تقرأ أفكاره. وداعبها وهو يستند إلى السور ليتفحص وجهها فقال:

«إنهن يقفن رهن إشارتي انتظاراً لايماءة مني».

وقالت كايسي لتجاريه في لهجته التهكمية:

«لا بد أن تحرص الأمهات على عرض بناتهن أمامك. فلا شك أنك أشهر أعزب في المنطقة، وصيد ثمين للخاطبات ومدبّرات الزيجات الامعة».

وومض طرف السيكارة في الظلام وهو يسحب النفس منها.

«هل تفكرين في دخول حلبة المنافسة مع الباقيات؟»

«أنا؟ إنني لا أجرؤ على ذلك».

وكان من الصعب عليها أن تضحك وهو ينظر إليها من خلال دخان سيكارته، وقالت وهي تجاريه:

«إنني مجرد فتاة ريفية بسيطة، ولا أقارن بالفتيات الأخريات، كما أنني لا أستطيع منافستهن».

«بل تصبحين منافسة خطيرة».

وشعرت كايسي كأنها تغرق، وهي تنظر إلى دوامة عينيه الرماديتين وتستمع إلى لهجة صوته الساحر.

«إن عينيك داكنتان وتحاولان بجهد كبير أن تخفيا طبيعتك العاطفية المتأججة. كما أن شعرك ناعم متموج وخال من العطور اللزجة بحيث يستطيع الرجل أن يعبث به».

وليبرهن على ما يقوله، امتدت يد فلينت بأصابعها خلال خصلات شعرها قبل أن تستقر على مؤخرة رأسها. فحبست أنفاسها وأغمضت عينيها فرحاً بالمداعبة المحببة اللذيذة واسترسل فلينت يقول:

«إنني أخيفك... أليس كذلك؟»

وفعلا كانت كايسي خائفة من رد الفعل الذي يمكن أن يحدث لها، إذ خشيت ألا تستطيع مواجهة الموقف. ولم يكن في وسعها إنكار هذه الحقيقة. فهي تعلم تماماً أن وجهها يفصح عن مشاعرها ويعكسها له بوضوح ظاهر. وقالت بصوت أجش:

«لم تكن لي علاقة بأحد من قبل».

فتنهد فلينت وقال:

«يا للأسف».

وجال بنظراته في وجهها بدون أن يحاول إخفاء سعادته عندما رأى بريق الاطمئنان والفرح الذي يشع في وجهها لانتصارها على نفسها. وسألته بصوت خافت:

«ما الخبر؟»

«إنك في الحادية والعشرين من عمرك. وفي هذا الزمن الذي يتصف فيه الحب بالتحرر، تكون علاقتك برجل هي الحل الأمثل».

وربت على خدها بظهر يده وتمنت كايسي أن تستجيب لمداعبته مثل الهرة الأليفة التي تتمسح في صاحبها، وتابع فلينت كلامه بقوله:

«لكنك لست من هذا الصنف يا كايسي. وأنت تعلمين ذلك، فأنت من طراز قديم، ومبدأك الانتماء إلى رجل واحد. وهو شيء نادر هذه الأيام».

فوقفت ساكنة بين ذراعيه ورفضه الرقيق يحز في نفسها المترددة.

«أتظن دائماً أنك تجيد معرفة النساء وتفهم طبيعتهن؟»

فرفع ذقنها إليه برفق ونظر إلى سواد عينيها وقد مال رأسه إلى الجنب.

«سبق لي أن أخطأت التقدير، ويحزنني إذا كنت مخطئاً في تقدير حالتك».

وابتعد عنها ومد يده وقال:

«سيبحثون عنا في الحفل، ولا أريد أن أثير المزيد من غضب سميتي».

وأبت كايسي أن تمسك بيده بل قالت في تهكم ظاهر:

«كلا... يجب ألا تغضبه».

وهمس فلينت في أذنها وهو يسير وراءها وهي تمشي بسرعة نحو المنطقة المضاءة.

«ربما هذا هو الأفضل».

ورغماً عنها ابتسمت باقتضاب، متضايقة من صوته، وخاب أملها لأنه وضع حداً لمحاولاته معها، ولو أنها حاولت إقناع نفسها بأن ذلك لصالحها. فقد كانت لا تزال تعاني من الفراغ بداخلها الذي تتوق إلى ملئه. وسألت نفسها لماذا لم تبق مدة أطول بين ذراعيه.

وسمعت صوت فلينت يقول وقد علا فوق صوت الموسيقى:

«كنا نتحدث عنك يا سميتي».

فحدق سميتي في وجه كايسي وقال:

«لا بد أنكما تتحدثان عني، لانني كنت أنا أيضاً أبحث عنكما».

فردت عليه بتحد واضح:

«حقاً؟ وماذا حدث لبريندا؟ إنني أعجب كيف استطعت البعد عنها».

وانسحب فلينت من بينهما، وهو يستأذن كايسي التي ظلت تتابعه بنظراتها وهو يبتعد عنها.

وعندما رأى سميتي نظرة الحزن في وجه كايسي لانصراف فلينت

قال:

«هل ضمك إلى قائمة ضحاياه؟»

فقالت له بحنق:

«أتريد أن ترقص معي؟ إذا لم ترد يمكنك الانصراف من أمامي».

وشعرت براحة لأنها استطاعت أخيراً أن تصب جام غضبها على شخص آخر غير نفسها.

www.elromancia.com

١٠ ـ النظرة تحدث دوائر

ظلّت ذكرى تلك الليلة تلاحق كايسي أياماً طويلة. فباستثناء موقفه من سميتي ظل فلينت في خدمتها ورهن إشارتها بقية الليلة، لكنه تعمّد أن يظلا بين جموع المدعوين ولم يحاول الانفراد بها، كما لم يحاول ذلك في الأيام التي تلت الحفل، وشعرت كايسي كأنه كان يقصد إبعادها عن طريقه.

وتمنت لو كان في إمكانها أن تصبح فتاة مجرّبة تلفت نظره بحنكتها كبقية الفتيات. ثم ضحكت من نفسها وتعجبت كيف تجول مثل هذه الفكرة في خاطرها. كان فلينت محقاً عندما قال انها ليست من ذلك الصنف ومع ذلك لم يغير هذا من حقيقة تعرفها تماماً وهي أن فلينت لن يرضى إلا بعلاقة عابرة بينهما. فإن ثراءه ومعرفته بالحياة أقصياه عن أي منافسة مع غيرها يكون الزواج نتيجتها.

وألقت كايسي بحصاة في الماء، وراقبت الدوائر التي أحدثها سقوطها وقالت في نفسها: إن نظرة من فلينت تحدث في داخلها أثراً أقوى من هذه الدوائر. فإن رغبتها العاطفية استقرت ونضجت، واتضح لها أن حبها لفلينت، مثل رغبتها، قد أصبحا لا يحتملان النكران، كما ازداد حبها له يوماً بعد يوم.

وحاولت أن تتجاهل الأسابيع القادمة لأن أباها سيعود قريباً من المستشفى مما سيضطر فلينت إلى الرحيل، وهالها أنها في وقت من الأوقات كانت تتوق لمجيء ذلك اليوم. أما الآن فقد بدأت تشعر بالفراغ الذي سيحدثه رحيله في

حياتها. وهو فراغ أخذ يهددها بقسوته ويكشر لها عن أنيابه ويلتهمها ويتركها نهباً لحياة خاوية. وإذا كانت فكرة رحيله تسبب لها مثل هذه الكآبة الآن، وهو مازال موجوداً، فكيف يكون الحال بعد رحيله؟

وسقطت قطرة ماء على ذراعها بينما سرت في الأرض رجة لم تفتها مغزاها. فتحولت عيناها عن البحيرة ورفعتها إلى السماء، ورأت البرق يومض وهو يشق طريقه عبر السحب المتراكمة التي تسير بسرعة في طريقها. وسرعان ما اهتزت الأرض ثانية بأصداء خفية بينما سقطت عليها قطرة أخرى من الماء. فقد كانت العواصف الفجائية شيئاً عادياً بالنسبة لولاية نبراسكا. والتفتت كايسي نحو المنطقة المزروعة التي تركت حصانها يرعى فيها.

كان رأسه منتصباً وعيناه تزوغان خوفاً من البرق المنبعث من بين سحب العاصفة، وفجأة تحفز الحصان، ووقف على قدميه عندما دوّى الرعد ثانية قبل أن ينطلق بعيداً عن البحيرة. فهبت كايسي واقفة تنادي على الحصان الذي أخذ يعدو خائفاً بعيداً عنها، ورأسه عال وهو يميل بها إلى أحد الجانبين ليمنع اللجام من المجيء في طريق أقدامه. فعادت كايسي تنادي بكل قواها:

«تالي، تالي!»

إلا أن نداءها راح هباء، وتلاشى مع صوت المطر المنهمر. وفي لحظات ابتلت ملابسها وقالت لنفسها أن لا فائدة ترجى من الوقوف هكذا، وهي تنظر إلى الحصان الهارب. فمشت إلى قمة التل تتبعه وتحاول استدعاءه، لكنه كاد يختفي عن نظرها. وفي ثورة غضبها وضعت اصبعين من يدها في فمها وأطلقت صفيراً لاستدعائه لكن بلا طائل. إذ لم يبطىء الحصان من خطاه. ونظرت مترددة إلى السحب القاتمة قبل أن تبدأ مسيرتها متجهة نحو المنزل الذي يبعد سبعة أميال تقريباً عن المكان الذي كانت فيه. وتمنت وتمنت لو أمكنها ألا تشعر بالندم والرثاء لنفسها لوقوعها في هذه الورطة، وألا تضيع وقتها بالنظر إلى السماء، إذ بدأت أقدامها تزلها وهي في حذائها الطويل.

وفجأة سمعت صهيل حصان، توقفت له خطواتها وابتسمت ابتسامة الأمل وظنت أن تالي قد عاد إليها. ولكن عندما نظرت أمامها رأت كايسي حصاناً أبيض يقترب منها. وكانت المفاجأة؛ فصاحت قائلة:

«كيف حالك اليوم يا ميركوري؟»

وكان صوتها ناعماً، مداعباً للحصان الذي أخذ يضع فمه بالقرب من وجهها. وقالت مسترسلة في حديثها:

«ليس لدي سكر اليوم».

وومض البرق ثانية وكان قريباً منها هذه المرة. اقتربت بكل عنفها. وتأكدت كايسي أن لديها فرصة واحدة للوصول إلى المنزل قبل أن تنفجر العاصفة بأقصى شدتها وينهمر المطر. لكنها لم تركب ميركوري من عدة سنوات. وكانت المشكلة هي قدرتها للسيطرة عليه وتوجيه إلى المزرعة بمجرد وخز ركبتيها في جنبيه.

ولم تجد أمامها مناصاً من تجربة هذه الطريقة القديمة. وانتاب الحصان الفزع عندما اعتلت ظهره العاري من السرج. وتحرك الحصان تحتها بقلق بينما أخذت كايسي تتحدث إليه بصوت خافت وتحاول أن تبعث فيه الهدوء قبل أن تطلب منه الانطلاق في طريقه إلى منزل المزرعة. فأخذ الحصان يسير بتردد وبطء وهو يحاول أن يعوّد نفسه على الثقل الذي وجده فجأة على ظهره، والذي لم يشعر به منذ سنوات. إلا أن الذكريات والعادات القديمة سرعان ما عاودته، وهكذا نجحت كايسي في دفعه للعدو، وكان الحصان الأبيض العجوز يستجيب لأقل ضغط من سيقانها بنفس السرعة التي كان يستجيب بها عندما كان صغيراً وكان هو وكايسي لا يفترقان.

وسقط المطر بغزارة وأصبحت قطراته كحبات البارود وهي تقع عليها وعلى حصانها. وسرت في الأرض ذبذبات وأصداء تحت حوافر الحصان مثل دوي الرعد، بينما أخذت السماء تلمع بوميض البرق ثم تعود ويسود لونها ثانية. وأسرع

ميركوري في خطاه حتى أخذ يعدو بكل قواه. وكانت سرعته تزداد تدريجيا بدون أن تتنبه كايسي لذلك حتى لاحظت الأرض وهي تنطوي تحتها بسرعة هائلة.

ولم تكن لديها طريقة تهدئ بها سرعة الحصان. وكل ما كان في وسعها هو الضغط على جانبيه المبللين بالمطر بساقيها المبتلين. وأخذ قلبها يدق في حلقها، وهما يسرعان فوق أرض ساندهيلز وأيقنت كايسي أنه يجب الابطاء من سرعة الحصان إذ أن السرعة ضارة لمن في مثل سنه. لكنها، مثل حصانها، كانت تذكر، تلك الأيام الخوالي، عندما كانا يعدوان هكذا عبر البراري. وأخذت تقنع نفسها أنه ربما لا يجهد نفسه، وأن خطاه لم تكن تسبب له عناء كعهدها به دائماً.

وفجأة وهي تسبح في هذه الأفكار، شعرت باختلاف في وقع خطى الحصان وحتى قبل أن يقع ميركوري كانت كايسي تعلم أنه لا بدّ أن يقع. فقفزت من فوقه وهو ينقلب رأساً على عقب في الهواء. وخفّفت إحدى الاشجار الصغيرة من حدة سقوطها، ومع ذلك وقفت على قدميها وهي تلهث، وبسرعة، اطمأنت إلى أن جسمها خال من أي كسور في عظامها. ثم استدارت بعينيها الداكنتين نحو جسم الحصان الهامد الراقد على بعد بضعة أقدام من مكان وقوفها. فتعثرت قدماها وهي تتجه إليه وزحفت نحوه، وامتلأت عيناها بالدموع وهي تجثو بجانب الصدر الضخم الذي كان يبتلع كميات كبيرة من الهواء قبل ذلك بلحظات. أما الآن فقد كان الصدر هادئاً تماماً. فصاحت فيه قائلة:

«ميركوري!»

وامتدت يدها لتلمس خصلته الأمامية وأخذ جسمها كله يرتعد وتأكدت أن حصانها قد مات. وأخذت كايسي الرأس البيضاء على حجرها وهي تبكي. بينما أغلق الموت للأبد عيني الحصان اللتين كانتا تشبهان عيني الغزال. ودفنت رأسها في عنق الحصان وقالت له بصوت هامس مرتعش:

«إني أسفة!»

غاب الآن عنها صديقها وأعز ما كانت تمتلك، ولم تعد تهتم بالبرق أو بالرعد أو بالمطر.

وشيئاً فشيئاً شعرت بتناقص هطول المطر وتوقفه تماماً بعد هدوء العاصفة. ولم يجذب تفكيرها بعيداً عن الحصان الذي في أحضانها غير يدين أخذتا تقبضان على كتفيها. فنظرت بعينيها السابحتين في الدموع إلى العينين الرماديتين اللتين تطلان عليها بحنان من تحت حافة القبعة المبتلة.

«عاد حصانك وحده إلى المزرعة فقلقت عليك».

هذا هو كل ما قاله فلينت، بينما ضم كايسي إلى صدره العريض حيث أخذت تنتحب من جديد.

«كنت أركبه...وأخذ يعدو...ولم أستطع إيقافه».

كانت تتكلم بصعوبة بسبب الغصة التي توقفت في حلقها من الحزن. غير أن احتواءه إياها بين ذراعيه بعث فيها الطمأنينة وجعلها تواصل الكلام:

«ثم...ثم سقط..لقد مات يا فلينت».

نظرت كايسي في عينيه فأزاح فلينت خصلات الشعر البني عن وجنتيها وقال بابتسامة حانية:

«لا تلومي نفسك يا كايسي، أليس هذا أفضل له؟»

وأسندت كايسي رأسها فوق كتف فلينت وأخذ قلبها يهدأ في صدرها.

وعندما لامست شفتاه شعرها لم تتمالك من الالتصاق به والاستكانة بين دفء ذراعيه، وشعرت بشفتي فلينت تلمس جبينها وتحركت مشاعرها. ثم مسح بشفتيه الدمع من رموشها وقبل النمش الذي يرتسم على أنفها. وضغط بيده على كتفيها وأخذ يهمس باسمها بهدوء وبصوت خافت.

وفتحت عينيها المرتعشتين لتنظر في وجد إلى عينيه الرماديتين، وأخذت يدها تداعب خصلات شعره الناعم وهي تجذبه نحوها أكثر فأكثر. وانتابتها موجات من السعادة العارمة التي تركتها أكثر ضعفاً واستجابة. وكانت اللحظات عنيفة

بحيث رفعتها إلى قمة السعادة. وشعرت بحاستها الفطرية باضطرام مشاعره مثل مشاعرها وأسعدها أنها نجحت في بث نفس الشعور فيه.

وفجأة شعرت بالخوف وأخذت محاولة أن تتخلص منه، وترفض المضي في الاستسلام لمشاعرها. إلا أن فلينت تجاهل محاولاتها واستمر في التعبير عن حبه. وحاولت كايسي ألا تستجيب.

وأخيراً نظر إليها فلينت وابتعد عنها. وعندما فتحت فمها لتتكلم أسكتها قائلاً:

«لا تعتذري».

وأمسكها بخشونة من كتفيها وأرغمها على مواجهته وقال:

«ما كان في وسعك أن تكبحي جماح مشاعرك يا كايسي، ونحن نعرف ذلك».

وكان الغضب في صوته ووجهه، وشعرت كايسي بالاختناق لأن العبارة كانت موجهة لنفسه وليس لها.

وقال لها فلينت بلهجة الآمرة:

«خذي جوادي وعودي للمزرعة، وارسلي سام إلى هنا ليعاونني في دفن ميركوري».

وألقت كايسي نظرة على الحصان الأبيض ثم على السحب الرمادية التي أخذت تنقشع وقالت في نفسها: أنها كانت إحدى العواصف العنيفة المألوفة في التلال الرملية بولاية نبراسكا. ففي لحظة تكون السماء صافية، وفجأة تمتلىء بالسحب الرعدية وبسرعة تمر العاصفة تاركة وراءها الخراب والدمار. ونظرت إلى فلينت وإلى التعبير الصارم المرتسم على وجهه. فهل كان مثل إحدى هذه العواصف بحيث جاء فجأة وبدون أن يتوقع أحد ليدمر حياة المزرعة الرتيبة وحياة كايسي ثم ينصرف بالسرعة التي جاء بها؟

وعادت نظرتها تقع على ميركوري ولسان حالها يقول: شيء يموت وشيء يولد.

ألم يمت بسرعة أيضاً الحب الذي ولد بينها وبين فلينت؟ وما الذي سيولد في مكانه؟ لا شيء سوى القلب الكسير!

وقالت في نفسها: أيها المسكين، ميركوري، كم أنت محظوظ لتحرك.

ثم امتطت صهوة جواد فلينت وانصرفت.

١١ ـ من يقاوم الشمس؟

كان ذلك العصر شديد الحرارة بحيث لم تكن محتملة، ولم تهتز حتى أوراق الشجر. وكانت شمس الغروب كرة من اللهب تلفح الأرض الرملية بحرارتها. وكانت كايسي مكتئبة ومتوترة الأعصاب، وهي حالة لازمتها في اليومين الأخيرين. ومما زاد من عصبيتها اليوم زيارتها لمزرعة سميث. فقد ذهبت إلى هناك لعمل ترتيبات استعارة طائرتهم في اليوم التالي لتتفقد الأسوار في المناطق النائية. ولسوء حظ كايسي كانت الأسرة كلها مجتمعة على الشرفة عندما وصلت إلى مزرعتهم.

وحياها والدا سميتي بنفس الحماس الذي تعودته منهما وأصرا أن تجلس معهم وتتناول كوباً من الشاي. وكان تصرف سميتي وغضبه واضحاً بحيث لم يفت والديه أن يلحظاه. وعندما تكلم أخيراً، كانت أسئلته التهكمية عن ماكاليستر تثير في والديه نظرات من الدهشة صوباها إليه وإلى كايسي. وحاولت كايسي أن تكون إجابتها مؤدبة، لكن كان ضيق صدرها يفلت منها ويبدو في ملاحظاتها.

وحاول السيد والسيدة سميث أن يتغاضيا عن العبارات المتوترة المتبادلة بين كايسي و سميتي. واعتبرا العداوة البادية بين الاثنين كأنها شجار يقع بين متحابين.

ولكن عندما داعب السيد سميث ابنه قائلاً:

«الليلة الجمعة ولا بد ستأخذ السيارة لتدعو كايسي للسينما».

عندئذ اختفت محاولة التظاهر بالمجاملات وقال سميثي:

«إني واثق من أن كايسي و ماكاليستر لديهما ترتيب آخر لهذه الليلة، لكني سأحتاج للسيارة فعلاً».

ونظر إلى كايسي نظرة انتصار واضاف:

«سأذهب لمنزل آل فيرلي لزيارة بريندا».

فتمتمت كايسي بأول عذر بدر لها وانصرفت، وأصبحت استعارة الطائرة لليوم التالي شيئاً لا أهمية له. ففلينت قد أدار ظهره نحوها وعاملها كأنها شيء لا يجب الاقتراب منه، وسميثي يهجرها الآن من أجل تلك الفتاة التافهة، بريندا فيرلي. واضطربت كايسي لموقفها، بحيث أصبحت لا تعي شيئاً مما يدور حولها.

وكان جزء كبير من مشكلتها مع فلينت من صنعها هي، فقد أصبحت تجد صعوبة في النظر إليه بصراحة وثبات. فكلما دخل غرفة هي فيها ينتابها مزيج من الفرح والخجل معاً. كانت مشاعرها مضطربة ومشوشة بحيث لم تعد تدري هل تتجاهل ما حدث بينهما أم لا. إلا أن كلمات فلينت المقتضبة، كلما تحدث إليها، جعلتها تقرر أن تتجاهل الموقف الذي دار بينتها.

وطنّت ذبابة بجانب أذنها وأخذت تهشها بلا طائل وهي في طريقها إلى المنزل، وبحركة تأفف وغضب أغلقت كايسي بعنف الباب السلك وراءها وهي تدخل المطبخ. وكانت الغرفة خالية بصورة غير طبيعية، إذ في مثل ذلك الوقت من بعد الظهر تكون الأم منهمكة في إعداد طعام العشاء. وهزت كايسي كتفيها بضيق وأخذت إبريق الشاي المثلج من الثلاجة. وفهمت من النظرة السريعة التي ألقتها على الفرن أنه ما من شيء يوحي بأي استعداد لوجبة العشاء.

وصبت لنفسها كوباً من الشاي، وهمت برفعه إلى شفتيها عندما سمعت صوتاً آتياً من الباب فالتفتت وراءها متوقعة أن ترى والدتها. إلا أنها وجدت فلينت بدلاً منها. وكان يدلّك مؤخرة رقبته بحركة تدل على تعبه وإنهاكه. ونظر إلى كايسي نظرة مفكر شارد. وكان تعبيره جاداً وصارماً بينما بدا التعب في عينيه.

وكتمت كايسي في نفسها رغبة جامحة في أن تسرع إليه وترفّه عنه، إلا أنها فضلت أن تظل في مكانها كما كانت وهي تدير ظهرها نحوه دلالة على عدم اهتمامها به. فقال لها بصوت جاف نزل على أعصابها المتوترة نزول السياط:

«قضيت نصف النهار أبحث عنك».

ولحسن حظها كان ظهرها متجهاً نحوه لذا لم يلحظ دهشتها.

«ألا تتعلمين أبداً أن تخطري أحداً بمكان وجودك؟»

فردت بحدة تضاهي حدته:

«فكرت أن ذلك ليس أمراً هاماً. لكن، أين والدتي؟»

«في المرة التالية لا تفكري، بل أطيعي ما يقال لك».

وآلمها أن يحدثها فلينت بهذه اللهجة كما لو كانت طفلة.

«أما عن والدتك فقد اتصل بها المستشفى في صباح اليوم».

«هل سيعود أبي إلى المنزل؟»

وحاولت أن تجعل صوتها يحمل معنى اللهفة، مع أنها تعلم جيداً أن عودة أبيها معناها رحيل فلينت.

«كلا».

كانت الكلمة الحاسمة التي قالها كافية بأن تشعر كايسي بالقلق وتجعلها تبتلع غصة وقعت في حلقها بينما ظلت تنتظر مزيداً من الايضاح من فلينت الذي نظر إليها قبل أن تتابع كلامه:

«لقد أصيب والدك بحمى، وذهبت إليه والدتك صباح اليوم لأن الأطباء يرون حالته خطيرة».

فشهقت كايسي من القلق وشعرت بتوتر في عضلات معدتها من الخوف. تمنت كايسي أن يبقى فلينت معهم ولكن ليس على حساب صحة أبيها. ورغم صرامة وجهه، نظر إليها نظرة رثاء وقال:

«تكلمت لوسيل منذ بضع دقائق لتقول أنه تحسن تحسناً ملحوظاً، وأقنعتها أن

مكانها الطبيعي الآن هو بجانب والدك، لذا ستبقى في سكوتسبلاف مع أختها حتى يخرج والدك من المستشفى».

ومشى فلينت عبر الغرفة وصب لنفسه كوباً من الشاي، بينما نظرت إليه كايسي في صمت، فقد كانت تكيّف نفسها للأنباء التي سمعتها وللتوتر الغريب الذي استولى على فلينت. فكثيراً ما راقبته في الأسابيع القليلة الماضية وشعرت أن لديه أشياء أخرى يريد أن يصرح لها بها. ونظر ملياً إلى المشروب الذي في الكوب قبل أن يتناوله جرعة واحدة كما لو كان مشروباً روحياً. ثم صوّب عينيه نحوها وقال:

«لقد طلبت أختي صباح اليوم».

وتمهل ليرى وقع كلامه عليها ثم استطرد قائلاً:

«وعملت ترتيباتي معها على أن تقيمي عندها حتى يعود والدك إلى المنزل. فاعترتها الدهشة وهي تقول:

«ما الذي تقوله؟»

وكان الغضب الذي ينم عنه سؤالها كافياً لأن يجعل فلينت يجز على صدغيه وهو يضع الكوب على المائدة

«اتفقت مع والدتك على ذلك، ووافقتني على أنه يجب ألا تبقي هنا، في بيت واحد مع رجل أعزب، أي معي أنا.

«وماذا عن مارك؟ إنه هنا معنا».

«لا يعتبر صبي في الخامسة عشرة من عمره رقيباً ملائماً علينا».

«هذا هراء! أشعر كأني فتاة بدائية يجب أن يغلق عليها البيت بالمفتاح».

وهزت رأسها وهي لا تصدق ما تسمعه.

وقبل أن يقول فلينت شيئاً يعبر به عن الغضب البادي في عينيه قالت بسرعة وهدوء:

«أطلب اختك ثانية وقل لها أنني لن أحضر. فمكاني هنا في المزرعة وهناك عمل

كثير لا يمكنك القيام به وحدك».

فضرب بيده على المائدة بقوة جعلتها تقفز من مكانها وقال:

«ألا تفهمين يا كايسي أنني لا أريدك هنا؟»

وشعرت كأن يده قد حبست أنفاسها، بينما أخذت تنظر إلى العينين العنيدتين اللتين لن تحيدا عن رأيهما وشلّت صرامتهما حركتها بنفس القوة التي أحرقتها نارهما في يوم من الأيام.

فاستدارت كايسي والدموع تملأ عينيها إذ لم يبق لديها شك في حقيقة شعوره نحوها، فلو رسم لما يريده صورة، لما كانت أوضح من كلماته التي سمعتها لتوها، كان متبرماً من وجودها. لذا قررت كايسي أن لها بقية باقية من كبريائها هي الأخرى وصممت على إخفاء اعترافها بالهزيمة، وقالت بصوت هادئ:

«سأذهب».

وسمعت فلينت يتنهّد وراءها. ولكنها لم تكن تنهيدة الارتياح لقرارها، بل تنهيدة الضيق والألم. وأمسكت يداه بكتفيها وأدارها لتواجهه، غير أن كايسي سيطرت على نفسها حتى لا تتصرف كما كانت تود، أي أن ترتمي في ذراعيه وتستند إلى صدره الذي يغري باللجوء إليه.

«لقد تناولت هذا الموضوع بصورة غير سليمة».

وكان فلينت ينتقي كلماته بعناية، ويحاول أن يبدو منطقياً مسيطراً على نفسه، إلا أنه كان بادي الانفعال.

«أريد أن أقول أن هناك أشياء قد حدثت بيننا».

وحدّق بعينيه في عينيها لتساعده على إتمام ما يريد قوله. إلا أن كايسي ظلت متباعدة، وقد بردت نظراتها التي تحمل كل معاني التحدي. لذا أثار عدم تجاوبها معه غضبه الشديد وعاد يقول:

«إذا بقينا هنا بمفردنا...»

وتوقف عن الكلام ونظرت إليه كايسي في دهشة. وأخيراً اعترف فلينت بالواقع وقال:

«بصراحة، أعتقد أنك وقعت في حبي».

وكان تعبير وجهه الصارم قد صبغ وجهها بالاحمرار لشعورها بالمهانة. وسألت نفسها لماذا تفضحها مشاعرها دائماً أمامه؟

وحاولت أن يبدو صوتها بارداً، وهي تحاول مقاومة رجفة جسمها:

«يا لك من رجل أناني لم أر له مثيلاً! فهل اعتدت على وقوع النساء في حبك بحيث تعتبر ذلك من حقك؟ فلا بد أنك تظن بغرورك المعهود أن حركة واحدة منك تجعل أي فتاة ملكاً لك.

وتوقفت قليلاً لتسترد أنفاسها ثم عادت تقول:

«دعني أقول لك يا فلينت ماكاليستر...إنني لست من هؤلاء الفتيات، وكنت متأكدة طوال الوقت أنك رجل تستحق الازدراء. جاريتك في تصرفاتك فترة لأنني أردت أن أعرف هدفك. وعليه فلا تجهد نفسك في ضمّي إلى قائمة غزواتك».

«هل تقولين لي الحق؟ لأنك إذا لم تكوني تقولين الحق فإنني...»

وكانت أصابعه تقبض على كتفيها بشدة، فنظرت إليه وهي تهزأ من محاولته الوصول إلى معرفة حقيقة شعورها نحوه. فقالت بتهكم:

«ماذا تظن؟...اتركني حتى أذهب لأعد حقيبتي، إذ سيسعدني أن أفهم أختك حقيقة أخيها الأكبر».

فتركها فلينت فجأة وقال بصوت أجش:

«اذهبي...واخرجي من هنا»

فردّت عليه بنفس الشدة:

«بكل سرور».

وبعد ثلاث ساعات وصل فلينت و كايسي إلى المستشفى. وبدا على

جون غيلمور أنه أصبح أضعف مما كان. لكنه استطاع أن يداعب ابنته ويقول لها إنه أتى إلى المستشفى ليمرض! وتعجبت كايسي كيف أمكنها أن تبدو طبيعية وفي نفسها خليط من الألم والرفض، يجردها من أي شعور آخر. وتفادت الاشارة إلى فلينت ماكاليستر الذي وقف ساكتاً في الغرفة بعد أن تبادل بصعوبة مالا يزيد على خمس كلمات مع جون غيلمور، ثم وقف مستنداً إلى الحائط وهو ينظر إلى كايسي.

ومرت فترة اضطربت كايسي فيها أن تواجه نظرات والدها المليئة بالتساؤلات بعد أن قالت أمها أن كايسي ستقيم مع شقيقه فلينت، لكنها نجحت في تخفيف حدة هذه العبارة. وقالت كايسي ضاحكة:

«ما رأيك في هذا يا أبي؟ أنت تقول أن هناك جانباً مضيئاً لكل شيء، وها أنت في المستشفى بينما سأقوم بإجازة ممتعة أستريح فيها».

ونظرت الأم نظرة خوف وجهتها إلى كايسي ثم فلينت. وعلى الرغم من أن كايسي بدت طبيعية، إلا أن فلينت لم يكن طبيعياً. ولا توجد أم في الدنيا لا تلحظ الأمور الخفية التي كانت لوسيل تشعر بها وهي تحدث في بيتها في الأسبوعين الماضيين. فهل ارتكبت خطأ بموافقتها على اقتراح فلينت بأن تقيم كايسي مع شقيقته؟ لقد بدا الاقتراح معقولاً في أول الأمر. وعندما همت بأن تنتحل عذراً لتسأل ابنتها على انفراد عن المتاعب الموجودة بينها وبين فلينت، دخل أحد الأطباء، ليطمئن على مريضه. فانتهز فلينت الفرصة واقترح أن ينصرف هو و كايسي. وقد بدأت كايسي تملّ من التظاهر بالمرح، لذا وافقت بسرعة على اقتراح فلينت. وتمهلت برهة لتطمئن أبيها على أنها ستأتي لزيارته كلما استطاعت.

ولم تتوقع كايسي أن تكون الرحلة من سكوتسبلاف إلى أوغالالا طويلة إلى هذا الحد. كما لم تتوقع أن يعاملها فلينت في أثنائها بهذه الغطرسة وهذا الاحتقار. فحتى تعبير وجهه الذي قلما كان يديره نحوها كان ينم عن

الغضب، علاوة على النظرة الجافة في عينيه. أما هي فلم تحاول التخفيف من حدة التوتر في السيارة، بل انزوت بجانب الباب ونظرت من النافذة وحاولت أن تتخيل فلينت غير موجود فيها على الاطلاق.

وعندما مرّا بنيشيتي روك، شعرت كايبي بالدموع الحبيسة تعكر صفو عينيها. وأخذت تفكر فيما ينتظرها من متاعب.

لقد أصبحت تعترف بحبها لفلينت كشيء واقعي. لذا فإن رفضه إيّاها وعدم رغبه في وجودها معه جاءا كالجرح المميت الذي أبت كبرياءها أن تفصح عنه.

وظهرت مياه بحيرة ماكونوي وهي تلمع من خلف التلال الرملية التي تحد وادي نهر بلات. ووجدت كايبي نفسها تفكر في المكان الذي كانا يقصدانه، كما وجدت أنها تعرف القليل عن السيدة التي ستقيم معها: مجرد اسمها كابريل وسنها، وهو أربعة وعشرون عاماً، وعملها، وهو الكتابة الحرة والتأليف. وتاقت إلى سؤال فلينت عنها إلا أنها كانت تكبح هذه الرغبة وتبعدها عن ذهنها. وشعرت أن من الخطأ التمادي في مخالطة أسرته طالما أن شعورها نحوه بالصورة التي هي عليها. فكم هي الأيام التي ستتصوره فيها وكأنه بينهم. وارتسمت على شفتيها ابتسامة مريرة عندما تذكرت أنها قالت لوالدها أن رحلتها ستكون بمثابة إجازة. وهي حقيقة بعيدة عن الواقع، إذ ستكون تجربة مريرة لأعصابها وشعرت أنها لن تتحملها.

وانحرف فلينت بالسيارة عن الطريق العام إلى البحيرة. وفي ضوء الغروب الخافت، لفت نظر كايبي كابين حديث الطراز ذو شرفة واسعة خلف المبنى، ويطل على مياه البحيرة البراقة. ودل الطراز البسيط على أصالة وذوق رفيع، وهو السبب الذي جعل كايبي ترتجف حين أوقف فلينت السيارة عندها، فقد بعث ثراؤها في نفسها شعوراً بالخوف وجعلها أكثر حساسية بسبب تواضع أصلها وخلفية أسرتها.

وتوقفت السيارة في نفس الوقت الذي هدأت فيه دقات قلبها. وأوقف فلينت المحرك وانتظرت كايبي بتلهف فتحه لباب السيارة معلناً انتهاء الرحلة، إلا أنه تمهل ولم يفتحه، بل التفت إليها في ظلام السيارة، فعادت دقات قلبها تسرع من جديد. وكانت المسافة بينهما صغيرة بحيث يمكنها أن تصبح بين ذراعيه في لحظة واحدة، واندهشت لبرودة مشاعرها المفاجئة، رغم أنها استعادت في مخيلتها ذكرى اللحظات الدافئة وهو يقترب منها.

وقال فلينت بصوت حنون أثار أعصابها أكثر من أي شعور بالغضب:

«قلت في المستشفى أنك ستقومين بإجازة، فأرجو أن تكوني جادة في ذلك. فقد حدثت أشياء كثيرة في الأسابيع القليلة الماضية تحتاجين للراحة منها. لذا فإن حياة الهدوء ستتيح لك فرصة التفكير بإمعان وتعطيك مهلة للتعرف على حقيقة مشاعرك بشأن أشياء كثيرة».

فردت عليه بحدة:

«كف عن التمثيل. فأنت تعلم جيداً أنني قلت ذلك لأطمئن أبي. لذا وفر شفقتك للفتيات البائسات اللواتي يقعن في حب الرجال المنافقين المحبين لأنفسهم مثلك».

واندلع الغضب في عينيه ثانية، قبل أن يعود إليها جمودها.

«يجب أن ترشدك حاستك إلى الاعتراف بأن ما أقوله هو الواقع».

«قالت لي حاستي أنه ما كان يجب أن أدعك تطأ أنكوربار بقدميك. وأكبر غلطة اقترفتها هي أنني لم أستمع لحاستي هذه».

فهال فلينت وقال:

«تقترفين غلطة أكبر إذا استمريت في مقاومتي».

فردت عليه قائلة، وهي ترفض الاعتراف بأنها كانت خائفة من تهديده:

«لا فائدة من الكلام معك».

ثم فتحت باب السيارة ونزلت منه قبل أن تتيح له فرصة منعها. وشعرت كأن ساقيها لا تقويان على حملها لكنها نظرت إليه بكبرياء وهو يغلق باب السيارة

الذي خرج منه وحمل حقيبتها من مؤخرة السيارة. وأحدثت نظرة الاحتقار المرتسمة على وجهه غصة في حلق كايسي. فكل ما تمنته في هذه الساعة هو أن تبتعد عنه وتطلق العنان لدموعها التي حبستها طيلة الرحلة. فلم ترد أن يعرف أن في استطاعته إثارة بكائها. وأشار إليها فلينت بأن تتقدمه إلى الكابين. وكان من الصعب عليها أن تحتفظ باستقامة هامتها ورفعة رأسها وثبات مشيتها وهي تعلم أن نظرته مصوّبة إلى ظهرها. وهدأت مشاعرها قليلاً عندما انفتح باب الكابين الأمامي وغمرها فيض من النور.

«كنت أخشى أنكما لن تصلا أبداً».

هكذا رحبت بهما، بصوت يفيض سعادة، الفتاة الفارعة القوام ذات الشعر الداكن الواقفة في فتحة الباب.

١٢ ـ بصراحة لا أريدك

بعد أن انصرف فلينت قالت كابي:

«كان جاف الطبع، أليس كذلك؟ فلم يكن أبداً مثلاً لشهامة الرجال واحترامهم».

واعترفت كايسي بالواقع بمحض ارادتها وقالت، وقد أراحها أن أحداً غيرها لاحظ بروده وعدم احترامه لها:

«نعم كان جافاً».

كان فلينت مقتضباً في كلماته إذ عرّف الفتاتين ببعضهما باختصار قبل أن يعلن أنه يجب أن يعود لساندهيلز لتوّه ليصل إلى المزرعة في وقت مناسب. لذا رفض ما عرضت كابي أن تقدمه له من مرطبات وانصرف بايماءة صغيرة لكايسي على سبيل الوداع.

وبالرغم من أن كايسي كانت لا تزال تشعر بضيق الا أن ترحيب كابي كان حاراً وودوداً. وظلت تحاول خلق روح من الود والصداقة بينهما. وكانت مشكلة كايسي هي شعورها أنها برحيل فلينت أصبحت مجردة من الدرع الواقي الذي كانت تحتمي به. فبعد أن تخلصت، برحيله، من التوتر والضغط وجدت نفسها توشك على الانفجار والبكاء، وقالت لها كابي:

«لديّ مشروب مثلج في المطبخ فأرجو أن تدخلي وتستريحي في غرفة الجلوس حتى أحضره لك».

«شكراً سأفعل ذلك».

وكانت الغرفة مبهجة إلا أن كايسي لم تكن في حالة تسمح لها بأن تشعر بما

حولها من مباهج. وكانت الجدران بيضاء لها عروق من الخشب مما يعطيها طابعاً ريفياً محبباً. ووجدت في الغرفة كرسياً من القش الأبيض يغريها بالغوص في أعماقه والاسترخاء في أحضانه. لذا جلست كايتي عليه وغابت في وسائده اللينة الملونة وجاءت كابي بعد لحظة وفي يدها كوب مثلج من المرطبات يغري شاربه بالقطرات المتجمعة خارجه.

وكان طعم العصير منعشاً وملطفاً لحلق كايتي. فساعد على ارتخاء عضلاتها وتهدئة أوصالها.

وأضافت كابي قائلة:

«أشعر أنك في حاجة الى شراب أكثر قوة وفاعلية من مجرد العصير».

فتنهدت كايتي ووافقتها على رأيها وركزت نظرها على الكوب وهي تتلذذ بسماع صوت ملامسة الثلج لجوانب الكأس ورنينه.

واسترخت كابي بقوامها الفارع على الأريكة المجاورة وقالت:

«كيف حال والدك؟»

«أحسن بكثير. وصل تأثير الميكروب الى ذروته هذا الصباح وبدأ في التحسن. وكان يداعبنا عندما كان... عندما كنا هناك».

وكانت تفكر في أي شيء تقوله. شيء يمنع ذهنها من العودة للتفكير في فلينت وهو الموضوع الذي ترد أن تتحاشاه.

وأخذت عينا كابي الخضراوين مع شيء من الزرقة تفحصان كايتي بإمعان قبل أ ن تستقرا على السوار الفضي العريض الذي يطوّق معصمها.

«بدا على فلينت القلق والاهتمام وهو يطلبني ظهر اليوم. فهو ليس من الصنف الذي يطلب الاستغاثة بلا سبب».

فابتلعت كايتي ريقها بصعوبة. لكنها لم تستطع التخلص من الغصّة التي في حلقها. وتمهلت كابي برهة لتعطي كايتي الفرصة للتعليق على ما قالته قبل أن تتم كلامها.

في إجازات نهاية الأسبوع التي زارنا فيها فلينت قال لنا الكثير عن أسرتكم. فهو معجب بوالديك. وقال أن لك أخوين. أليس كذلك؟»

فأومأت كايتي بالايجاب.

«يرى فلينت أن مارك. أليس هو الأخ الأصغر؟ سيصبح مزارعاً ومربياً ممتازاً للماشية. كما يعتقد فلينت أن لمارك ميلاً طبيعياً وخبرة نظريّة بالأرض».

فلينت!فلينت! فلينت! لا سبيل إلى الهروب منه. وفجأة امتلأت عيناها بالدموع وشعرت أنها توشك أن تسيل على خديها. فهبت واقفة ووضعت الكوب على المائدة وحاولت أن تستعيد هدوءها بلا طائل. فقالت لكابي، وهي لا تريد أن تبكي أمامها:

«أرجو أن تأذني لي بالاعتكاف. أعلم أن الوقت مبكر لكني أشعر بالتعب وأريد أن أوي إلى غرفتي».

قالت ذلك وهي تحاول التغلب على صوت النحيب الذي أخذ يقترب من شفتيها.

وابتسمت كابي ووقفت تقول:

«لا داعي للاعتذار. فإنني أفهم شعورك جيداً».

وقادت كايتي إلى غرفة نوم صغيرة. وأرتها موقع الحمام والأدراج الخالية في خزانة أدوات المائدة والطهي والخزانة التي ستعلق فيها ملابسها. ثم تركتها وانصرفت. بعد أن قالت لها:

«يمكنك أن تتأخري في نومك كما تريدين. فأنا أعمل في الصباح الباكر. لذا يستحسن أن تغطي رأسك بوسادة إذا سمعت صوت الآلة الكاتبة. والآن أرجو أن تستمتعي بليلة سعيدة هادئة يا كايتي».

وعندما أغلقت الفتاة الباب وراءها. ألقت كايتي بنفسها فوق السرير وخلعت حذاءها وملابسها وراحت في النهاية تحملق في سقف الغرفة الذي سرعان ما غابت زخارفه في غمامة من الدموع.

في صباح اليوم التالي استغرقت كايسي نصف ساعة لكي تزيل آثار دموع الليلة السابقة. وبالرغم من محاولاتها، لم تفلح الوسائل الصناعية في إزالة الشحوب الذي ظهر في وجنتيها والانكسار الذي بدا في عينيها. ومع ذلك هزت كتفيها لتقنع نفسها بأن لا داعي للاهتمام بمظهرها. وارتدت بلوزة خضراء تلائم لون بنطلونها، وعندما دخلت إلى غرفة الجلوس، كانت كابي تخرج من المطبخ وهي تحمل صينية في يدها وقالت بمرح:

«حان وقت راحتي من العمل ووقت إفطارنا».

ومشت أمام كايسي في طريقها إلى الباب الزجاجي المؤدي إلى الشرفة.

«هذا ما أقوله دائماً عندما يتعثر العمل وأجد صعوبة في الاستمرار في الجلوس أمام الآلة الكاتبة. فأرحب بأي عذر أقوم من أجله من أمام الآلة. وما رأيك فيما أعددته من إفطار؟ فطائر مقددة، ومربى وقهوة؟»

«تبدو شهية».

وتبعتها كايسي إلى الشرفة المتسعة ولم يسعها إلا الاعجاب بالروب الأخضر الذي كانت ترتديه كابي وقد عقصت شعرها الطويل فوق رأسها.

ولاحظت كابي أن كايسي تطيل النظر إليها فقالت:

«هل يعجبك ردائي؟ يتوقع معظم الناس من الكتاب أن يكونوا غريبي الأطوار في تصرفهم لذا أردت ألا أخيب ظنهم».

فابتسمت كايسي وقالت:

«تبدين طبيعية في هذا الرداء ولا أعتقد أن أحداً يعتبره غريباً».

ثم سحبت كايسي كرسيها بعيداً عن الطاولة وقالت:

«ما هو شعورك ككاتبة؟»

«العمل في الكتابة له محاسنه ومساوئه. فالمساوئ هي عندما تضعين الورق أمامك ولا تجدين ما تكتبينه، بينما الآلة الكاتبة أمامك ومفاتيحها تحملق فيك في صمت. ولكن من ناحية أخرى فإنها لسعادة غامرة عندما ترين اسمك في ذيل

مقال ينشر لك، بشرط ألا يساورك شعور اليأس عندما يرفضون نشر مقالاتك أحياناً».

وأخذت كايسي تحتسي القهوة وتستمتع برائحتها العطرة الأخاذة. وعادت تسأل وهي تفرد المربى على الفطير:

«ما هي مواضيع كتاباتك؟»

«قصص قصيرة ومقالات للمجلات. وهناك فكرة تجول في ذهني وتصلح لقصة طويلة لكنها حتى الآن لم تر النور ولم تصل إلى الورق بعد».

واستندت إلى ظهر مقعدها وأخذت تأكل وهي تنظر إلى البحيرة.

وفجأة امتقع لون كايسي حينما لاحظت وجه الفتاة الجانبي الارستقراطي. كانت هذه الفتاة الجميلة تشبه فلينت شبهاً شديداً. كان لها نفس عظام الوجنتين والأنف المستقيم والحاجبين المقوسين. إلا أن عظام فكيها كانت أكثر أنوثة ورقة. وكانت رائعة الجمال بطريقتها الخاصة. أما الآن فكانت صورة من فلينت أثارت كايسي لتشابه ملامحها المليحة الجذابة مع ملامحه.

ونظرت كابي بعينيها الخضراوين المشوبتين بالزرقة إلى عيني كايسي اللتين ملأهما الألم وقالت:

«هل اكتشفت التشابه الموجود بين أفراد أسرتنا؟»

ووجدت كايسي صعوبة في مواجهة عيني كابي اللتين يملأهما الذكاء والفطنة.

«لا أدري ما تعنيه».

وارتبكت كايسي وهي تحاول تجاهل نظرات كابي المصوبة إليها.

«كلنا، أعضاء أسرة ماكاليستر، متشابهون في شيء أو آخر. فكل منا أنا وفلينت له نفس التركيب العظمي برغم أن شعري أغمق من شعره وليست لي تلك الثنايا المحببة التي تضفي على فمه ابتسامة دائمة. وكنت متأكدة من أنك ستكتشفين هذا الشبه عاجلاً أو آجلاً».

وحاولت كايسي أن تخفي ارتباكها وراء فنجان القهوة وهي تعترف لنفسها بوجود الشبه بين الأخت وأخيها.

«يبدو أنك قضيت الليلة باكية».

ولم تستطع كايسي أن تمنع فنجانها من الارتطام بصحنه عند عبارة كابي التي لم تتوقعها.

«لم أصبح كاتبة ناجحة بدون قدرتي على ملاحظة الناس المحيطين بي. فلست امرأة سهلة، ولن أحاول أن أكون كذلك».

وظهرت في عينيها نظرة عطف وهي ترى تضارب العواطف تتلاحق على وجه كايسي.

«أراهن أن دموعك ليلة أمس كان من أجل أخي وليست من أجل أبيك. فهل هذا صحيح؟»

فحملقت كايسي فيها بدهشة وسألت نفسها: كيف تسنى لكابي أن تعرف هذه الحقيقة؟ وكيف أمكنها أن تخمن ما تشعر به. وفتحت فمها لتنكر هذا الاتهام. إلا أن كلمة نعم خرجت من بين شفتيها وهي تكاد تكون غير مفهومة.

فشجعتها كابي على الاسترسال في الحديث وقالت:

«هل تريدين أن تحديثني عن شعورك؟»

فرفعت كايسي رأسها ونظرت إليها وهي تفكر، وطمأنتها كابي قائلة:

«إنني أتكلم كثيراً لكني لا أبوح بالسر لأحد. فلا تظني أنني سأنقل أخبارك إلى فلينت. وإذا فضلت عدم الكلام، فلا مانع لديّ».

ووجدت كايسي نفسها ترحب بفكرة الافصاح عما يدور في قلبها لتخفف من وطأة تحملها الآلام وحدها. كما أنها شعرت بأن في إمكانها الوثوق في كابي كما كانت تثق في فلينت في وقت من الأوقات. لكنها قررت بينها وبين نفسها أن هناك نقطة لن تتعداها في البوح بسرها. لذا حجبت عنها التفاصيل الخاصة، وقصت عليها قصتها مختصرة أنهتها بالعبارة التي آلمتها وهي

بين لي بوضوح أنه لا يريدني».

واندهشت كايسي لرباطة الجأش والهدوء اللذين قصت بهما قصتها، فقد كانت الكلمات تخرج من فمها وكأنها منبعثة من شخص آخر، أي كما لو كانت قد استنفدت كل دموعها في الليلة السابقة ولم تبق لها أي مشاعر أخرى تنفعل بها.

«يا له من مخلوق عديم الشعور!»

وانبعث الدخان من السيكارة التي أشعلتها كابي وأخذت تنفخ فيها بين شفتيها الورديتين.

«فبالرغم من أنه شقيقي إلا أنني أرى أن تصرفه كان جافاً».

وانعكس لون ردائها الأخضر على بريق عينيها واستطردت تقول:

«إذا لم يفطن فلينت إلى الجوهرة التي كان في إمكانه الحصول عليها، فإنه يستحق ما سيحدث له».

واندهشت كايسي لعبارة كابي وسألتها قائلة:

«ما الذي تتحدثين عنه؟»

فهزت كابي كتفيها وقامت من مجلسها وهي تقول:

«مجرد ملحوظة عابرة... والآن يجب أن أعود لاتمام عملي. ويمكنك أن تمارسي رياضة السباحة إذا أردت، فالشواطىء هنا ساحرة للغاية».

وبعد انصراف كابي بدقائق سمعت كايسي صوت قرقعة الآلة الكاتبة فتنهدت وتمنت لو كانت في المزرعة حيث كان في استطاعتها أن تشغل نفسها بعمل ما. فكل ما كان أمامها الآن هو النظر إلى جمال البحيرة بشواطئها الرملية الممتدة حول المياه التي تحاكي زرقتها زرقة السماء. ففي وسط كل هذه الروعة من شمس ورمال، كانت كايسي تشعر بآلام حبها لفلينت.

وأفزعها صوت التليفون وهو يرن في المنزل وكأنه جرس منبه يوقظها من حلم مزعج. وانتظرت كايسي لترد كابي على التليفون، لكن صوت الآلة

الكاتبة طغى على الرنين ولم يتوقف. وظنت كايسي أن كابي ربما لا تريد أن يعرف أحد أنها في المنزل. إلا أنها لم تستطع تجاهل رنين التليفون أكثر من ذلك لذا ردت عليه.

وجاء إليها صوت رجل وهو يرد من الجانب الآخر بمرح جعل قلب كايسي يدق بسرعة زائدة.

«هل هذا أنت يا كابي؟»

ولوهلة قصيرة، ذكّرها صوت ذلك الرجل بصوت فلينت العميق. وكادت ركبتاها تتخليان عنها، بينما ارتمت على الأريكة بجانب الطاولة التي عليها التليفون.

«كلا، لست كابي، سأناديها لك».

ووجدت كايسي صعوبة في السيطرة على صوتها، ووضعت السماعة جانباً قبل أن يسترسل الرجل في كلامه، وأسرعت إلى الغرفة التي تعمل فيها كابي ودقت برفق على الباب وقالت:

«هناك مكالمة تلفونية لك».

فرفعت كابي عينيها عن الآلة الكاتبة وهي تسأل:

«من المتحدث؟»

«لم أسأل، إنه رجل».

«إذن يستحق التحدث إليه!»

وابتسمت كابي ابتسامة عريضة.

ولم يسع كايسي إلا الاستماع عفواً للمحادثة الآتية إلى أذنيها من جانب واحد.

«هالو.. كنت أعمل... تعرف كيف أكون عندما أجلس أمام الآلة الكاتبة فلا ينصرف انتباهي عنها إلا انفجار قنبلة تحت مقعدي؛ إنها كايسي غيلمور. فلا بد تذكر أن فلينت تحدث عنها كثيراً. فهي ستقيم معي حتى خروج والدها من

المستشفى... إنني أتم مقالة بدأتها، لذا دعنا نؤجل ذلك حتى نهاية الأسبوع... إذن اتفقنا... إلى اللقاء... إنني أحبك».

واستدارت كابي إلى كايسي بعد أن وضعت السماعة في مكانها وعيناها تبرقان من الضحك وهي تقول:

«كنت على حق، فهذا الرجل هو أبي. وسيحضر مع أمي في نهاية الاسبوع القادم فهما مغرمان بالصيد لدرجة الأدمان. فمن الصعب إبعادهما عن بيغ ماك مدة طويلة».

ثم أضافت كابي تقول وهي تفسر عبارتها:

«بيغ ماك هي البحيرة، وهو اختصار محبب لبحيرة ماكونواي وهذا الاسم الذي يستخدمه أهل المنطقة».

وكانت الابتسامة التي حاولت كايسي رسمها على وجهها قد أفلحت فقط في رفع جوانب شفتيها. وتذكرت أنه لا يحتمل أن يخرج والدها من المستشفى في الأسبوع القادم، وتساءلت ألا يكفيها أنها مضطرة للسكن مع أخت فلينت؟ وهل هي مضطرة أن تقابل والديه أيضاً؟

لاحظت كابي عدم حماس كايسي لخبر مجيء والديّ فلينت قريباً، ولكنها لم تعلق عليه، بل استأذنتها وعادت إلى الغرفة لمتابعة عملها.

١٣ ـ زهرة ضاحكة

ومرت الأيام ببطء السلحفاة، وكان النهار بالنسبة لكايسي عبارة عن ساعات طويلة مملة تشعر فيها بفشل حبها كحمل ثقيل تنوء تحته، حتى لم تعد تقوى على احتماله. حاولت كابي في الأيام الأربعة الماضية أن تملأ وقت كايسي بأشياء تقومان بها معاً.

فأخذتها مرتين في سيارتها لتزور والدها في المستشفى، لكنها كانت زيارات مليئة بالتوتر وحرصت فيها كايسي على كلماتها حتى لا تفضح حقيقة مشاعرها. لقد تحسن والدها كثيراً وكان يتوق إلى اليوم الذي يعود فيه الى بيته، ولأول مرة وجدت كايسي صعوبة في مناقشة شؤون المزرعة مع أبيها. فكل جملة من كلامها كانت تحتوي على اسم فلينت، بل أصبحت الحياة ذاتها الآن مرتبطة به برباط متين.

وبذكائها الحاد وحاستها المرهفة فهمت كابي المشكلة وحاولت أن تصحح الوضع فوراً. فاصطحبت كايسي في الأمسيات الأخرى في رحلات لزيارة أوغالالا التي تبعد عشرة أميال عن بحيرة ماكونوي وأخذت تريها كل المعالم التي تجعل أوغالالا عاصمة رعاة البقر في ولاية نبراسكا، مثل القصر المبني على التل، وشارع فرونت، ومقابر بوت هيل وغيرها. أما مجموعة الصور الباهتة لرعاة البقر التي رأتها كايسي في المتحف الموجود في نهاية الطريق، فكانت تذكرها بفلينت كما رأته كايسي مراراً وعيناه ترقبان الأفق البعيد. أما الوحدة الموحشة التي تحيط بمقابر بوت هيل فكانت صدى للوحدة

التي تشعر بها كايسي في قلبها.

لذا كانت كابي تصحبها معها للمتاجر وتحثها على شراء رداء بعد رداء مصممة على رفع روحها المعنوية. واستجابت كايسي لشراء بعض الملابس الزاهية الألوان التي تزيد من جاذبيتها، لذا انتقت الملابس الزاهية الأنيقة وهي تحاول بلبسها أن تغير من شكلها. ثم تعود وتسأل نفسها: لماذا كل هذا العناد؟ فالألوان الزاهية لا يمكنها أن تتغلغل إلى قلبها وتضفي على آلامه الكئيبة أي بهجة أو سرور.

غير أن إقامتها مع كابي صقلت من عزيمتها وجعلتها قادرة على مقاومة هذا العذاب، ولكن المشكلة الكبرى أنها تعتبر نفسها في حرب عليها أن تخوضها. وتشعر بالصراع ينشب في نفسها كلما رأت طيف فلينت يجول في مخيلتها. لذا كانت كايسي تجد راحتها الوحيدة في النشاط الدائب الذي يجعلها تلقي بنفسها على سريرها ليلاً، وتطمئن أن الاجهاد سيضمن لها النوم السريع.

هل كان النسيم هو الذي يعزف في أعواد القطن صباحاً أو هي نفسها التي تتنهد بتثاقل؟ وكانت كايسي تعجب من أمرها، فأحياناً كان الصوتان يمتزجان معاً حتى تبدو وكأن الأرض تشاركها حزنها. وقادتها نزهتها على الشاطىء إلى مكان بعيد عن الكابين حيث كانت كابي منهمكة في العمل. وتسلقت صخرة تطل منها إلى المراكب المبعثرة فوق البحيرة. وأخرجت سيكارة وأشعلتها بطريقة تدل على عدم إدمانها التدخين. فقد كان التدخين من العادات الجديدة التي اكتسبتها كايسي حديثاً لكي تعطيها شيئاً تشغل يديها به، إلا أنها لم ترفه عنها بل سببت لها التهاباً في حلقها.

وجلست كايسي بلا حركة فوق الصخرة وتركت حرارة الشمس تحرق ساقيها العاريتين تحت رداء البحر الصغير. والغريب أن قلة نشاطها الجسماني كان يتيح لذهنها الفرصة لكي تستعيد ذكريات فلينت. فإن حرارة الشمس على جسدها أعادت في ذهنها شعورها بدفء ذراعيه. وبينما أخذت لفحات النسيم

تداعبها أخذت تغمض عينيها وتشعر بأنفاسه على وجهها وهو يغمرها ويلاطفها. وقد كانت الرجفة التي تسببها لها هذه الذكريات أكثر إيلاماً من الرجفات التي كان فلينت يثيرها فيها.

واحتارت بينها وبين نفسها وهي تقول: ليس هذا عدلاً.

الطبيعة كلها تتآمر ضدها. فحتى السحب الرمادية في الأفق كانت تحاكي لون عينيه وتذكرها به، لون رمادي يتغيرّ أحياناً من براق كالفضة، إلى لون السحب الرعدية الصاخبة، ثم إلى الجمود للحديد والصلب.

وتوقفت كايسي قليلاً عند حافة الماء ثم خلعت صندلها ونزعت ساعتها من معصمها ووضعتها كلها في كومة مع حقيبة الشاطىء، والمنشفة ثم نزلت إلى البحيرة. وشعرت ببرودة المياه المنعشة تلطف من حرارة جلدها. وفي دقائق كانت تسبح في الماء بضربات الزحف الرتيبة. وظلت تسبح وكأنها تتسابق مع نفسها لتبتعد عن العذاب الذي يمزقها. حتى ابتعدت تدريجيا عن الشاطىء، وهي تستعين بالارهاق الجسدي لتتغلب على الذكريات الأليمة. وبعد كل بضعة ضربات من ذراعيها كانت تخرج رأسها من الماء لتفرغ الهواء من رئتيها وتستنشق غيره نقياً. ومن خلال نبض الدماء في رأسها وقوة المياه من حولها بسبب شدة ضربات ذراعيها وساقيها سمعت صوتاً بعيداً يناديها. ولفترة قصيرة تصورت أن الصوت قادم من مكان قريب، مع أنها لم تلحظ سباحين آخرين على الشاطىء، أو معها في الماء. وفجأة اصطدمت قدمها بشيء، صلب أمامها. واندفعت بقوتها نحوه وارتطم جانب رأسها به محدثاً آلاماً مبرحة. وغمرتها المياه وهي تحاول أن تعود لتطفو ثانية على سطح الماء بينما هي تقاوم الألم الذي أخذ ينبض في رأسها. وإذا بيد تمسك بإحدى ذراعيها ثم بذراعها الأخرى. وفجأة انتشلها شخص من الماء ووجدت نفسها ملقاة فوق سطح مركب صغير، وهي تلهث، ورأت أشرعة حمراء وذهبية ترفرف فوق رأسها، بينما أخذت تنثر الماء من شعرها وتحاول أن تركز نظرها من خلال قطرات المياه اللامعة على أهدابها.

وانحنى جسم نحوها، وسمعت صوتاً يقول:

«هل أنت بخير؟»

فمسحت عينيها ونظرت ملياً إلى الشاب الواقف أمامها.

«لقد ناديت عليك لكنك لم تسمعيني، هدأ الريح ولم تستجب المركب للدفة».

وأرغمت كايسي نفسها على الجلوس بينما منعها شعورها بالدوار من القيام بأي حركة أكثر.

«إنني بخير، كل ما هناك أنني أشعر بصدمة ورعشة بسيطتين».

وكان صوتها يرتجف، ولو أنها حاولت الابتسام لتطمئن الشاب الذي أخذ يحوم باهتمام بجانبها لمساعدتها. وارتاح لسلامتها واطمأن على حالتها وابتسم ثم قال:

«لدي قليل من القهوة، يحسن بك أن تتناولي قدحاً منها».

ومشى نحو مؤخرة المركب حيث توجد سلة من القش.

وانتهزت كايسي الفرصة لتنظر ملياً إلى الشخص الذي أصابها ثم أصبح منقذها. ووجدت أنه لا يكبرها بكثير، فربما كان في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره. وقدّرت طوله، عندما يقف بستّ أقدام. أما شعره فقد لفحته أشعة الشمس حتى أحالته إلى لون يكاد يكون أبيض وكان مقوصاً بطريقة تتميز بالخصلات الطويلة المشعثة. أما ما بدا من جسمه من خلال سترته البحرية الزرقاء، ومن أسفل لباس البحر فقد كان شديد السمرة من لفح الشمس. وعندما استدار إليها رأت أن لعينيه لوناً أزرق والشيء الغريب هو أن ما انطبع في ذهن كايسي عنه، لم تكن جاذبيته، رغم شعورها بها، لكن عدم وجود أي شبه بينه وبين فلينت كليّة، بل كان في الواقع نقيضه تماماً.

وابتسم لها فظهرت أسنانه البيضاء وهو يقدم لها القدح البلاستيك المليء بالقهوة الساخنة. وانتظر وهو يرقبها حتى تحتسيها ببطء وقد أخذت سخونة الشراب تتغلب على شعورها بالبرد. وشكرته وهي تبتسم في وجهه قائلة:

«إنها رائعة».

وعاد يسألها:

«هل ارتطمت رأسك بالمركب بشدة؟ وهل أصبت بارتجاج بسيط أو بشيء من هذا القبيل؟»

وجرت عيناه الزرقاوان على وجهها وشعرها كما لو كان يتوقع وجود شيء ظاهر خارجي يثبت مخاوفه.

«لا أدري...»

وضحكت بعصبية ورفعت يدها لتتحسس الجزء المصاب تحت شعرها. ولم يكن هناك شك في أن الجزء كان يؤلمها، لكنها كانت متأكدة أنه مجرد ورم طفيف لا يلبث أن يزول. وعادت تقول:

«لا أظن ذلك. مجرد كدمة بسيطة».

«حمداً لله؟»

وابتسم الشاب وتنهد معرباً عن ارتياحه. وهز رأسه ومد يده إليها وقد جلس القرفصاء بجانبها وقال:

«اسمي سين سورنيسون، وقد أسعدني ارتطامي برأسك يا آنسة...؟»

«كايتي غيلمور».

وفجأة اهتزت الأشرعة الحمراء والذهبية وانتفخت بعد أن ملأها الهواء الذي أخذ يشتد قليلا. وزاد نشاط سين وحركته، وأخذ يجذب الحبال ويدير الدفة. أما كايتي التي لم يسبق لها أن ركبت سفينة شراعية قبل ذلك، فقد أخذت ترقبه باهتمام وشغف. وسرعان ما كانت تقفز فوق سطح الماء. وقال سين:

«ما رأيك في نزهة حول البحيرة؟ أعني كنوع من التعويض عن ضربة رأسك!»

فترددت كايتي بعض الشيء إذا لم تكن تعرفه بالقدر الذي يسمح لها بذلك. إلا أنه أعجبها. ولكنها قالت في نفسها إنه لا يمكن للانسان أن يأمن أحداً.

وعندما لاحظ ترددها قال مداعباً:

«أنني لن أخدعك أو أغرر بك. وسأظل قريباً من الشاطىء، حتى إذا بدأت في مغازلتك، يمكنك القفز من المركب والسباحة إلى الشاطىء».

فضحكت كايتي وقالت:

«تحلو لي النزهة البحرية تحت هذه الظروف، فلم يسبق لي ركوب السفن. وكنت أتصور دائماً أنها ممتعة».

فقال سين وكل انتباهه منصب على الشراع وحبال السفينة:

«أعدك أنك ستستمتعين بالنزهة البحرية».

وفعلا استمتعت كايتي بها، فقد انسابت السفينة في هدوء ويسر وبلا عناء عبر المياه مثل البجعة الرشيقة وهي تسبح في البحيرة. ونفذ سين وعده، فاحتفظ بالسفينة قرب الشاطىء، وشعرت كايتي كأنها تطير فوق بساط الريح، فقد كانت نزهة هادئة لا يعكر صفوها صوت أي محرك.

وكانت تحيط بالبحيرة تشكيلات من الصخور، ولكل منها شكل فريد في تكوينه وجماله، وترامت الشواطىء متتابعة بيضاء بينما كانت المياه التي تنساب على حوافيها تعكس زرقة السماء. وكان السيّاح بملابس السباحة وثياب الشاطىء الزاهية يضفون ألواناً خلأبة على تلك الجنة الغنية بالشمس والرمال، التي يرتادها السياح وطلاب المتعة والراحة. وكانت البحيرة، وكل ما يحيط بها من جمال، مثل الواحة وسط الوديان. اما الرحلة فكانت منعشة لكايتي حتى انها كادت تنسى فلينت ولو أن الفكرة نفسها ذكرتها به ثانية، وتمنت لو كان معها الآن خاصة وأنها رأت زهرة خشخاش بيضاء، يحف بها الشوك وقد نبتت على إحدى الصخور القريب من الشاطىء، وبدت كمنارة تهتدي بها السفن. وخيّل لها كأن الزهرة تضحك لها من بعيد، لذا لم تسمع سين وهو يسألها رأيها في الرحلة.

وعاد ينادي عليها فالتفتت إليه تزيح سحابة الدمع التي غطت عينيها. ثم قامت بإشارة فهم منها سين أنها سمعت نداءه رغم قرقعة الشراع.

«يوجد مرفأ في الخليج القادم به مطعم يقدم طعاماً شهياً، فهل تريدين تناول

شيء؟»

فابتسمت وهي توافق على اقتراحه، ثم استدارت للتطلع إلى البحيرة ثانية حتى لا تضطر للكلام معه. وبعد دقائق كان يقترب بالمركب من الرصيف. وبمهارة وكفاءة كبيرتين قفز إلى الممر الخشبي وربط المركب فيه. ومدت كايسي يدها له ليساعدها على النهوض من مكانها لتصاحبه خارج المركب. لكنه عاد يقول:

«انتظري لحظة».

وقفز إلى المركب ثانية حيث خلع سترته الخاصة بالملاحة ولبس بدلاً منها قميصاً أصفر وألقى بالسترة إلى كايسي قائلاً لها:

«ارتديها، وارتدي هذا أيضاً».

وألقى إليها سين على الرصيف بزوج من الصنادل.

«كلها كبيرة. لكن شعار المنطقة هنا هو لا قميص ولا حذاء ولا خدمة».

فارتدتها ورفعت كميها إلى منكبيها. وضحك الاثنان وكانت كايسي تمشي بصعوبة في الصندلين الكبيرين فكان من الصعب عليها أن تبقيهما في قدميها طوال الوقت. وهكذا أخذا يضحكان معاً في مرح وانطلاق. وفي المطعم طلبت كايسي هامبرغر وكوكاكولا. أما سين فطلب وجبة أكبر من ذلك. إذ كانت كايسي قد فقدت شهيتها في الأيام القليلة الماضية. لذا أدهشها أنها أكلت الهامبرغر بسرعة وتلذذ. وكان الحديث مع سين خفيفاً وخالياً من الجدّية، فلم يتناولا أي حديث ذي عمق أو تعقيد. وعلمت كايسي منه أنه طالب في جامعة كريتون بولاية أوماها ويعمل في أوغالالا في فصل الصيف، إذ قال:

«أعمل في أحد المصايف الموجودة على البحيرة حيث أقوم بصيانة المراكب. وفي أيام عطلتي أبحر في مركبي وهي هوايتي المفضلة بعد دراسة الطب. وأنت؟ هل تقيمين هنا؟ أو تعملين هنا، أم تقضين إجازة فقط؟»

فابتسمت كايسي بحزن وقالت:

«لأسرتي مزرعة في الشمال في ساندهيلز وكسرت ساق أبي عندما ألقى به جواده من فوق ظهره، وهو الآن في المستشفى. وقد عيّنّ رجلاً ليحل محله في إدارة المزرعة أثناء غيابه. وبما أن أمي في سكوتسبلاف مع أبي فقد اضطررت أن أقيم هنا في أوغالالا بدلاً من البقاء في المزرعة مع رجل أعزب.»

فضحك سين وقال:

«تبدو القصة وكأنها تحدث في العصور المتزمتة القديمة. ومع من تقيمين هنا؟»

وترددت كايسي في الحديث وهي تشرب الكوكاكولا ببطء:

«مع كابي ماكاليستر، شقيقة الرجل الذي عيّناه عندنا».

فصفّر سين وهو ينظر إلى كايسي نظرة جديدة وقال:

«ماكاليستر! إنه أجير غالي الثمن جداً. إذا كنت تعنين أسرة ملوك تربية الماشية التي تقيم هنا».

وشعرت ببعض التوتر إذ لم يعجبها الحديث وتمنت لو أنها لم تستجب لسؤاله أو لو أنها لم تقل له الحقيقة. ثم سيطرت كايسي على غضبها فلم يهدف سين بكلامه إلى شيء معين أو شخص معين، وشعرت أنها عادت لحالتها الطبيعية، وعادت تقول لتحسم الأمر:

«أراد أبي أن يحصل على أحسن خدمة ممكنة».

فحملق سين وهو يهز رأسه ليوافق على كلامها:

«لقد حصل عليها فعلاً. قياساً على ما أسمعه عن ماكاليستر».

وتململت كايسي في جلستها وقالت:

«كم الساعة الآن؟ فإن كابي ستتوقع عودتي قريباً».

فنظر سين إلى ذراعه العارية ثم إلى الساعة المثبتة فوق باب المطعم وقال:

«الواحدة إلا ربعاً».

فنظرت كايسي إلى الساعة بدهشة إذ لم تتصور أن تستغرق الرحلة البحرية كل هذا الوقت فقد اعتادت أن تعود من الشاطىء كل يوم عند الظهر.

وشعرت حينئذ أن كابي ستقلق عليها، فالتفتت إلى سين وقالت:

«هل يضايقك إذا انصرفنا الآن؟ إذ لم أقدر أن الوقت متأخر».

وهبت كايسي واقفة لتنفذ كلامها.

«كلا، لايضايقني أن ننصرف».

وقام سين من مقعده ووضع يده في جيبه ليدفع الحساب.

لقد جاءا مسافة طويلة بمحاذاة الشاطىء من المكان الذي تقابلا فيه. وكانت الشمس فوقهما تسكب حرارتها بلا رحمة. وودت كايسي لو أمكنها الاسراع لكن سين اضطر إلى استخدام المجداف ليساعد الهواء البطيء على مداعبة الشراع ودفعه. وأخيراً رأت مجموعة الصخور بجانب أعواد القطن حيث تركت ملابسها. وأوقف سين المركب على مسافة قريبة من الشاطىء.

وشكرته كايسي بحرارة على نزهة المركب والغداء، رغم رغبتها في الاسراع بالعودة فقالت:

«لقد استمتعت حقاً بالنزهة البحرية».

ثم خلعت سترته وسلمتها له وهي تقول:

«كما استمتعت أيضاً بطعام الغداء».

وطاف سين بعينيه الزرقاوين على وجهها باعجاب وهو يقول:

«أود أن أراك ثانية يا كايسي».

كانت حقاً فترة جميلة لم تتوقع أن تقضيها معه لكن كايسي لم تكن تود تكرارها لذا قالت رداً عليه:

«لا أدري كم ستطول إقامتي هنا».

وعاد يقول وكله أمل:

«سأراك تسبحين هنا ثانية، وحينئذ سنحدد موعداً للقاء. ما رأيك؟».

فوافقته وهي خائفة وقالت:

«لا بأس، والآن يجب أن انصرف، ولا بد سأراك قريباً يا سين».

وعاونته كايسي في دفع المركب من فوق الرمال ووقفت برهة على الشاطىء تلوح له مودعة قبل أن تسرع إلى المكان الذي تركت فيه أمتعتها، ولكن عندما وصلت إلى هناك لم تجد شيئاً! ولم تصدق كايسي عينيها. لكنها عادت وتذكرت أنها غابت عنه مدة طويلة بحيث قد يكون أحد المارة قد سرقها. لذا بدأت تسير في طريق العودة إلى الكابين وكلها أسف وألم لسرقة أمتعتها وأخذت تلعن غباءها لتركها إياها ليراها أي شخص من رواد الشاطىء.

وعندما اقتربت كايسي من أعواد القطن سمعت قرقعة الأغصان الجافة ووقع أقدام على الأعشاب والصخور. فنظرت في الظلال التي حولها ثم تسمرت في مكانها فجأة، بينما خرج من الأحراش شخص طويل نحيل. وشعرت كايسي كأن هزة كهربائية سرت في جسمها، بينما ارتفعت يدها إلى صدرها لتوقف ضربات قلبها المضطربة الخفاقة.

١٤ ـ قلق فوق الحصى

«هل كنت تبحثين عن هذه الأشياء؟»

ونظرت إليها عينان رماديتان باردتان مثل جبال الثلج بينما مد فلينت يده وهي تحمل أمتعة الشاطىء المفقودة. إذ لم يكن طيفاً بل كان حقيقة واقعة وهو يقف أمامها.

وقالت وقد احتبست أنفاسها وحاولت أن تجمع أفكارها المشتتة وتسيطر على صوتها المتهدج:

«كيف جئت إلى هنا؟ وماذا تفعل هنا؟»

رد في غضب:

«أحاول تتبع تحركات الفتيات اللواتي لا يشعرن بالمسؤولية».

فشعرت كايسي بالحرج وبالعرق يتصبب منها وهو يجول بنظره عليها وهي بلباس البحر ذي القطعتين. والقى برداء البحر الذهبي اللون وهو يقول لها بلهجة آمرة:

«ارتدي هذا».

فارتدته وضمت طرفيه إليها ولم يعد جلدها يحترق تحت وطأة نظراته. إلا أنه ظل ينظر في عينيها حتى اضطرت أن تخفضها لتحميها من نظرته الثاقبة. وقمتمت قائلة وهي تتركه وتتجه نحو الكابين:

«يجدر بي أن أعود للكابين إذ ستقلق كابي بسببي».

«تقلق!»

وقطع فلينت المسافة التي بينهما قبل أن تبدأ كايسي في التحرك من مكانها. وأمسك بكتفيها وهزها بعنف بدون أن يأبه بنظرة الخوف التي بدت في عينيها.

«أيتها الغبية، لماذا تظنين أنني جئت إلى هنا؟ إن كابي تكاد تجن من القلق!»

«إنك تؤلمني. أوه...دعني».

قالتها كايسي وهي تلهث وأسنانها تصطك من الخوف، رغم إثارة مشاعرها واستجابتها للمسته.

وتوقف عن هزها لكنه استبقاها في قبضة يده وظل ينظر إليها:

«أود أن أفعل بك أكثر من ذلك. فكلما فكرت فيما سببته لكابي، وددت لو خنقتك بيدي».

وحاولت كايسي أن تبتعد عنه لكنه جذبها بشدة وقربها منه. وبزيادة ضغطه على كتفيها زادت محاولاتها للافلات منه. ومع ذلك كانت تقاوم رغبتها في الارتماء بين ذراعيه. ورفع وجهها إلى وجهه وأيقظ الرغبة التي تثق في قدرته على إثارتها فيها. فكل ما تمنته هو أن تلف ذراعيها حوله بحيث يضمها إليه ولا يتركها تفلت منه. وابتلعت ريقها لتسيطر على مشاعرها ولترغم نفسها على إطاعة عقلها وليس قلبها.

وأقرت كايسي الواقع وقالت:

«أعرف أنني تأخرت، لكن لم يكن الأمر بيدنا فقد هدأ الهواء ولم تعد هناك نسمة كافية لتحريك الشراع، لذا اضطر سين إلى استخدام المجاديف معظم الوقت مما جعلنا نقضي وقتاً طويلاً في العودة».

«هل فعل سين ذلك؟ يا له من شهم!»

قالها فلينت باستهزاء، ونظرته المهينة تسبب لها مزيداً من الألم.

«إنه سبب وجيه جداً تماماً كعذر نفاد الوقود».

وثار غضبها بحدة بينما امتدت يدها وصفعته على خده، ولم تنبهها لسعة يدها

بما فعلت، لكن الذي نبهها هو العلامة الحمراء التي تركتها على خد فلينت. وكان رد فعله بنفس السرعة التي تصرفت هي بها. فقبل أن تقاوم وضع يديه وراء ظهرها. وفي الوقت نفسه رفعها وحملها إلى جذع شجرة ملقى على الأرض. وبلا عناء، وضعها على ركبتيه بدون أن يبالي بركل قدميها، وأخذ يضربها ضربات مبرحة. ولم يأبه بصياحها الذي يدل على الألم والغضب في آن واحد، ولم تمنع كايسي نفسها من تدليك الجزء الذي ضربه من جسمها وهي تنظر إليه بغضب.

ووقف فلينت أمامها ويداه على خصره وقال لها بنظرة تحدي:

«أتريدين أن تجربي ذلك مرة أخرى؟ فإذا أردت، يسرني أن ألبي طلبك مرة أخرى».

«إنني أكرهك».

وكان صوتها محشرجاً بصورة لم تكن تتوقعها. وقال بتهكم:

«وهل من المفروض أن أدهش لذلك؟»

«لا يهمني».

ونظرت إليه بعينيها القاسيتين.

«لقد تعبت من معاملتك لي دائماً كطفلة. فإنني في الحادية والعشرين وكل ما أريده أن تظل بعيداً عن حياتي».

لكن لم يكن في وسعها أن تطلب منه أن يكون بعيداً عن قلبها.

«إنني أنتظر اليوم الذي أنفض فيه يدي منك. فلا تشغلي بالك على ذلك. أما الآن فكل ما أريده هو أن أوصلك بسلام إلى كابي».

ومد فلينت يده وأمسك بمعصمها وسحبها وراءه بين الأشجار حيث كانت سيارته تلمع من خلال أوراق الشجر.

ودفعها إلى المقعد الأمامي بأمتعتها وراءها ثم ركب في مقعد القيادة ونظر إليها وكأنه يطمئن إلى أنها لن تهرب منه. وجلست كايسي معتدلة وهي متكئة

على الباب وتعمدت أن تظل نظراتها في خارج السيارة، ولم تستطع تجاهل الألم الذي سببه لها ضربه إياها خاصة وأن وهج الشمس جعل مقعد السيارة شديد السخونة. ووضع فلينت المفتاح في السيارة لكنه انتظر قبل أن يدير المحرك. وشعرت بعينيه تتجهان نحوها، لكنها رفضت أن تنظر إليه. وبدأ فلينت في الكلام فقال بجدية:

«أريدك يا كايسي أن تعديني بشيء».

فنظرت إليه بعينيها المتحديتين وقالت:

«ألا تكل أبداً من إصدار أوامرك للناس؟»

«أريدك أن تعديني بألا تخرجي هكذا مرة أخرى بدون أن تخبري كابي بمكان وجودك».

وتجاهل فلينت اعتراضاتها ولكنه تعمد أن يؤكد كلامه ويركز عليه فردت عليه بمرارة وهي تقول:

«لماذا لا تجعل طلبك في صيغة الأمر؟»

وابتسمت ابتسامة مريرة تشبه النظرة التي في عينيها واستطردت تقول:

«فأنت على أي حال الرئيس الكبير»

فأجابها فلينت:

«يمكننا أن نتبادل الاهانات طوال اليوم».

وكان يحاول السيطرة على غضبه بينما كانت كايسي تتعمد أن تثيره.

«كل ما أريده منك هو وعدك بألا تفعلي بكابي ما فعلته اليوم، فقد تسببت في قلقها من الساعة التاسعة صباحاً. لذا فإنني أطلب هذا الطلب من أجلها وليس من أجلي».

وظهرت تقطيبة على جبينها وعادت تقول:

«ولماذا تبحث عني في الصباح، بينما لا أعود من الشاطئ، قبل الظهر، إذ أنها تعمل دائماً في الصباح؟»

«لأنني تكلمت صباح اليوم وأردت التحدث إليك. اما سبب رغبتي في الكلام معك فلا أهمية له الآن. لذا ذهبت إلى الشاطىء لتبحث عنك ولم تجد لك أثراً غير أمتعتك الملقاة على الرمل. فالافتراض الطبيعي في هذه الحالة هو أنك قد نزلت إلى الماء للسباحة. ولما لم ترك في البحيرة، خشيت أن تكوني قد غرقت. وحمداً لله ليست كابي من الصنف الذي يبالغ في مخاوفه، فبدلاً من طلب وحدة الانقاذ للبحث عنك في قاع البحيرة، طلبتني وأنقذتنا جميعاً من الحرج، إذ كنت طيلة الصباح في صحبة صديقك الأسكندنافي».

فردت كاسيس بعنف وقد أزعجتها فكرة البحث عنها من التاسعة صباحاً:

«إنه ليس صديقي».

فرد فلينت بحدة:

«لا يهمني من يكون، سواء أكان قريبك، أو صديقك، أو عشيقك».

ولم يعطها الفرصة للرد فقد أدار مفتاح السيارة وارتفع صوت المحرك حتى غطى ما قد تقوله من كلمات. فجزت على شفتيها بسرعة لتمنع فيض دموعها حتى نبهها طعم الدم في فمها إلى ما كانت تفعله. وكانت تفضل لو طلبت كابي وحدة الانقاذ واحتملت نتيجة ما يتبع ذلك من شرحها لسبب غيابها بدلا من هذا الاستجواب الذي يجريه معها فلينت الآن.

وكانت كابي واقفة في الشرفة عند عودتها ولاحظت لتوها التوتر القائم بين الاثنين. ولو لم تكن كايسي منغمسة في مشاعر مشكلتها، للاحظت أنه لا يوجد أثر للقلق على وجه كابي. إذ تقدمت إليها بلهفة لتحتضنها وقالت:

«هل أنت بخير يا كايسي؟ لقد أخفتنا. أين كنت؟»

«ذهبت في نزهة بحرية ولم أحس بمرور الوقت».

قالت كايسي ذلك قبل أن ينطق فلينت بكلمة تهكم كان يوشك، كما شعرت كايسي، أن ينطق بها فحدق فلينت فيها وقال:

«لا بدّ كانت مشغولة بمن كان معها».

«من كان معها؟»

رددت كابي عبارة أخيها ونظرت إلى كايسي متوقعة أن تسمع شرحاً.

وجزت كايسي على أسنانها وقالت مرغمة وهي تشعر بعيني فلينت الثاقبتين تخترقان جسمها:

«قابلت ذلك الفتى الذي يعمل في أحد المصايف الموجودة هنا، ودعاني لنزهة في قاربه فوافقت».

وتبعت كلماتها فترة صمت محرجة تسبب فيها فلينت متعمداً حتى يبالغ في وقع تصرفها الطائش على أخته.

وبدون أن يحيد بعينيه عن كايسي أمر شقيقته بأن تعد لهم شراباً مثلجاً. فنظرت كابي إلى كايسي بدهشة قبل أن تخرج من الشرفة. وعادت كايسي تنظر بتردد إلى فلينت وهي تشعر برجفة خوفاً من صرامة وجهه الذي لفحته الشمس، وسألها بحدة:

«ماذا تعنين بعبارة · قابلت ذلك الفتى؟»

«أعني مجرد ما قلته تماماً».

وأدارت له ظهرها واستندت إلى حافة الشرفة الخشبية واشتدت قبضة يديها حتى ابيضّت عظامها. وتابع فلينت استجوابه:

«ومتى قابلته؟»

واتضح لها من شدة دقات قلبها أنه يقترب منها وأيّد ظله على ألواح أرضية الشرفة ظنونها. وأجابته بصوت تعمدت أن يبدو عادياً كأن الأمر لا يهمها:

«قابلته اليوم».

«أتعنين أنك قابلت غريباً اليوم وذهبت معه في نزهة بحرية؟»

ولم يخف الغضب الذي تجسّم في صوته، وشعرت كايسي كأن يداً أطبقت على قلبها وعصرته حتى كادت تصرخ من الألم.

«أتتركين غريباً يتصيدك؟ لا يمكن أن تكوني بهذه السذاجة».

فردت عليه كايسي بحدة قائلة:

«لا تبالغ إلى هذا الحدّ في القصة، فهي ليست جريمة».

لقد كان انتقاده لها لا يحتمل، إذ أنه لن يصدق ابداً براءة ما حدث ذلك الصباح.

«كان سين شاباً مهذباً فلم يخطر على باله غير مصاحبتي له في نزهة في قاربه».

فأدارها فلينت نحوه قائلاً:

«لاجدّ أنه فكر في النزهة البحرية عندما رآك في هذه الملابس، ولا بدّ أنه فكر في أشياء أخرى كذلك».

فثارت كايسي وانبعث الشرر من عينيها البنيتين وهي تنظر إلى عينيه بتحد وتقول:

«ما الخبر؟ هل تندم على أنك لم تعانقني عندما سنحت لك الفرصة؟»

وشعرت بتوتر جسمه بصورة لم تصدقها وانتقل التوتر إلى جسمها هي أيضاً بعد أن كان في كتفيها فقط. واستقر نظره على شفتيها المرتعدتين وسرت سخونة جامحة في جسمها. وكانت ترى الرغبة في عينيه وهي تتجاوب مع رغبتها وأخذ يجذبها نحوه عندما فتح الباب المؤدي من المنزل إلى الشرفة.

«يا إلهي! لقد أخطأت التوقيت. سأحضر بعض البسكوت».

قالتها كابي ببساطة وهي تنظر إلى الاثنين الواقفين أمامها واستدارت بسرعة لتدخل المنزل.

وقال لها فلينت وهو يترك كايسي ويمشي نحو الطاولة ذات الشمسية:

«لا عليك...فلم تعطلي شيئاً».

فابتسمت كابي وقالت:

«إنها غلطتي...لقد ظننت ذلك».

وانضمت كايسي إليها بعد قليل فقد كانت في حاجة إلى فسحة من الوقت لتستعيد فيها السيطرة على نفسها وعلى مشاعرها. وكان الصمت حول المائدة

رهيباً ومطبقاً وكئيباً بحيث يمكن قطعه بسكين. وكانت يدها ترجف بشدة بحيث لم تستطع أن تمسك بالكوب. لذا جلست ساكنة في مقعدها. وعندما أزاح فلينت مقعده ليقف، رفعت إليه عينيها اللتين تترقرق فيهما الدموع. فقد كانت حبيسة النظرة المهزومة المرتسمة على وجهه. ولفترة خاطفة كانت متأكدة أن عينيه تستعطفانها. لذا بلعت ريقها بصعوبة لكن عادت عيناه إلى جمودهما وقسوتهما وأخيراً قال:

«يجب أن أعود إلى المزرعة».

وأضاف قائلاً:

«هل لديك فائض من الأدب الذي يسمح لك يا كايسي بالمشي معي لتوصيلي للسيارة؟»

وبطريقة لم تتوقعها أمكنها أن تقف على ساقيها الضعيفتين بينا تمتمت كابي بأنها ستتولى أمر تنظيف مكان طعامها حتى لا تضطر إلى الاستماع لمزيد من كلمات فلينت الجارحة. وانتظر فلينت بأدب بارد حتى تتقدمه كايسي وقد مشت بثبات مصطنع وشعرت من التعبير الغاضب المرتسم على وجهه أنه لاحظ ضغطها على نفسها.

وعندما وصلا إلى السيارة قالت كايسي:

«آسفة أنك قمت بهذه الرحلة بلا طائل. فليتني أغرقت نفسي فجعلتها رحلة لها قيمتها بالنسبة لك».

فرد فلينت ونظرته تحوم حول وجهها الصارم:

«حتى إذا مت فلا بد أنك ستعودين لتلاحقيني في منامي وأفكاري».

وفتح باب السيارة ودخل فيها ثم نظر إليها ببرود وقال:

«أعتقد ألا فائدة من اقتراحي ألا تقابلي ذلك الفتى مرة أخرى».

فردت كايسي بالايجاب مع أنها لم تكن لديها النية أو الرغبة في مقابلة سين ثانية.

وأخذ فلينت يرقب وجهها وقد علت شفتيه ابتسامة وقال:

«لا أظن أنك تعتزمين مقابلته ثانية. لكنك لا تودين أن تريحيني بوعـدك لي بذلك».

«كيف تعلم أنني لم أحدد له موعداً غرامياً هذه الليلة؟»

فارتجف فمه بابتسامة تهكمية ولمعت عيناه وهو يقول:

«ربما...لكني أشعر أنك لن تفعلي ذلك».

وضايقتها ثقته الكاملة برأيه لدرجة أنها قالت له بحدة:

«لقد أوصلتك إلى السيارة يا سيد ماكاليستر، وحان موعد رحيلك».

فسخر فلينت منها وقال:

«إنك ما زلت نفس الزهرة الشائكة البرّية التي تحاول أن تغمد شوكها في كل من يحاول الاقتراب منها. ألست كذلك يا كايتي؟»

ثم أدار محرك السيارة قبل أن تقول له:

«أغمدها في الأشخاص الذين يضايقونني فقط».

واستدارت متجهة نحو الكابين وصوت عجلات السيارة على الحصى يتبعها، وقد اختلط بصوت ضحكات سائقها المكتومة.

١٥ ـ حرباء أم وردة شائكة؟

«وهذا هو أبي لوكاس ماكاليستر».

قالتها كايتي وقد لفّت ذراعها بحنان حول الرجل الطويل الذي يشبه فلينت شبهاً كبيراً.

وجدت كايتي صعوبة في النظر إلى العينين الرماديتين اللتين تشبهان عيني فلينت عندما يكون في حالة دعابة. كما كانت الابتسامة تشبه ابتسامة فلينت شبهاً كبيراً، خاصة وهو يرفع جانباً من فمه ليصبح أعلى من الجانب الآخر. إلا أن شعر أبيه كان أغمق من شعره بحيث يكاد يكون أسود عدا شعيرات رمادية عند اللمة تزيده وقاراً. وهو لم يزل رجلاً مهيباً جذاباً برغم سنوات عمره المتقدمة.

«كيف حالك يا كايتي غيلمور؟»

وحياها الأب مصافحاً يدها بحرارة وقد بدد صوته الرنان شيئاً من شعورها بالاضطراب. ونظرت إلى عينيه في تردد وهي تستمع بنظرتها الدافئة.

«كنا نتوق لمقابلتك والتعرف بك».

ونظر لوكاس ماكاليستر بحب وحنان إلى السيدة الرقيقة القد، ذات الشعر الأحمر الواقفة بجواره. ونظرت العينان الخضراوان إلى كايتي مرحبة بها، وقد زاد من تعبير الابتسامة الخطوط الضاحكة المرتسمة حول عينيها، فلم يسع كايتي إلا أن تبادلها الابتسام.

وكانت ابتسامة الأم صادقة بددت شيئاً من الرهبة التي كانت تشعر بها كايسي.

«سمعنا الكثير عنك يا كايسي حتى أصبحت وكأنك فرد من الأسرة».

فردت كايسي قائلة:

«هذا كرم كبير منك يا سيد ماكاليستر».

وكانت تتمنى في الأيام القليلة الماضية أن تجد والديّ فلينت جافي الطبع، متعالين حتى لا يمتد إليهما الحب الذي تشعر به نحو فلينت. والآن وقد قابلتهما، وجدت أن روحهما الودودة المرحبة بها قد بددت ذلك الأمل القديم. فقد كانا يحيطانها بفيض من الحب يشع منهما.

وقالت والدة فلينت، وهي تصمم أن تناديها كايسي باسمها:

«ناديني باسم ميغ فلسنا أسرة تتمسك بالرسميات».

وقالت كابي وهي تنظر إلى كايسي نظرة إعجاب:

«اخرجا أنتما الاثنان إلى الشرفة وسأحضر أنا و كايسي عصير الليمون والأكواب».

وأرادت أن تطمئن أمها بأنها لا تحتاج لمساعدتها. ثم اتجه الوالدان إلى الشرفة تاركين كابي مع كايسي. والتفتت كابي إليها قائلة:

«قد أكون متحيّزة، لكنني أعتقد أن والديّ من أحسن الآباء والأمهات».

فقالت كايسي وهي تنظر إليها وقد ذكرها حبها لبعضهما بأسرتها التي بدأت تشعر بالوحشة بدونها:

«يبدو عليهما الشباب، لذا فلا بدّ أنك تستمتعين بأبوتهما».

فتنهدت كابي واتسعت عيناها وهي تتبع نظرة كايسي وقالت:

«يستطيع أبي أن يوقع أي امرأة في غرامه. فهل من المستغرب أنني، بوالد وأربعة اخوة من هذا الطراز، لم أعجب بأحد من الرجال الذين قابلتهم حتى الآن؟ ويبدو

أنني سأظل طوال حياتي عانساً».

ضحكت كايسي وهي تنظر إلى الفتاة الجذابة ذات الشعر الأسود وقالت:

«أشك في ذلك».

لكن ذلك التعليق لم يكن مضحكاً من وجهة نظر كايسي، فعندما كانت تفكر في مستقبلها وتقارن بين من قد يصادفها من الرجال وبين فلينت، كانت تشعر بأنها إحدى النساء اللواتي لا يحببن إلا مرة واحدة في حياتهن. وكان فلينت بالنسبة لها هو ذلك الحب الوحيد. إلا أن القدر لم يسمح لها بأن تحظى بحبه، وهي حقيقة لم تجعل المستقبل يبشر بمصير سعيد.

وأمسكت كايسي بصينية الأكواب التي ناولتها إياها كابي واتجهت بها نحو الشرفة. وعندما مرت أمام المرآة الموجودة في غرفة الجلوس دهشت من الصورة التي رأتها منعكسة في المرآة. فقد كان الفستان الذي ترتديه أحمر اللون يعكس وهجاً وردياً على وجنتيها. ولم يبد في نظرة عينيها المثقلتين إلا قليل من العذاب الذي كانت تعانيه. أما فيما عدا ذلك فقد بدت كأي فتاة طبيعية، تتمتع بصحة جيدة مثل بقية البنات. وسألها لوكاس ماكاليستر عن صحة أبيها عندما دخلت الشرفة ووضعت الصينية على الطاولة حيث كان يجلس بجانبها.

«إنه أحسن بكثير ويتوق للعودة إلى المزرعة».

فعلّق الأب على عبارتها قائلاً:

«هذه علامة طيبة من صاحب مزرعة».

غير أن ميغ قالت من واقع تجاربها، وهي تحوّل نظرها بين زوجها وبين كايسي:

«هذا يعني عادة ضرورة البقاء في الفراش أسبوعاً آخر».

فضحكت كايسي وقالت:

«ترى والدتي نفس الرأي، ولكن مثل أبي. فكلانا يحب الرجوع دائماً إلى أوضاعنا

العادية ومكاننا الطبيعي».

وهي أمنية ملحة تمنت كايسي ألا تتحقق أبداً.

«لا شك أن أباك سيحتاج إلى بعض الوقت ليعود إلى نشاطه المعتاد، وحركته الطبيعية، فيجب أن يتقبل فكرة إدارة المزرعة من مقعده لفترة من الوقت».

ولمعت العينان الرماديتان وهو ينظر إليها واستطرد يقول:

«غير أن ابني قد أخبرني بإصرارك على إدارة المزرعة بنفسك».

«إن عمل المرأة الآن لم يعد قاصراً على إدارة المنزل فقط».

وكانت الجدية البادية في صوتها موجهة نحو فلينت أكثر منها نحو والده.

«ومع ذلك هي مسؤولية ضخمة لفتاة يانعة في مثل سنك».

وابتسم لوكاس وهو ينظر إلى زوجته وعاد يقول:

«إن الفتيات الريفيات يتحملن كثيراً، لكن لا ضرر من وجود رجل يمكن الاعتماد عليه عندما يظهر ما يستدعي ذلك».

ثم غمز بعينيه لكايسي وقال:

«وحتى إذا لم يظهر ما يستدعي ذلك!»

فاصطبغت وجنتا كايسي بحمرة الخجل عندما شعرت أنه يقرنها بشخص فلينت. ثم سألها:

«كيف الحال في المزرعة؟»

فقالت في تردد:

«لا أدري.»

فمال برأسه وهو يقول لها:

«فهمت أن فلينت جاء إلى هنا هذا الأسبوع لمقابلتك، واعتقدت أن الزيارة لمشاورتك في بعض الشؤون الزراعية.. لكن ربما كان الكلام ذا صيغة شخصية!»

فتمتمت كايسي قائلة:

«كانت ظروف غريبة هي التي أتت به إلى هنا. وعلاوة على ذلك فهو عادة يناقش جميع شؤون المزرعة مع والدي».

«هذا ما توقعته فلا تغضبي يا كايسي، إذ لا يمكنني أن أتصور ابني وهو يقدم تقاريره لسيدة، حتى ولو كانت متحررة».

وغيرت ميغ ماكاليستر الموضوع بسهولة وهي تحاول تحويل نظر كايسي عن النسخة الأصلية من فلينت، فقالت:

«حدثنا فلينت كثيراً عن أسرتك حتى كنا نتوق إلى التعرف بكم».

والآن وقد تغلبت كايسي على الصدمة التي صادفتها بمقابلة شخص مثل فلينت تماماً، اغتنمت الفرصة للانتباه إلى أمه لدراستها. لقد كان شعرها الأحمر أفتح بقليل من شعره، بالرغم من الشعيرات الرمادية التي تتخلله وتضفي عليه جمالاً وأناقة. وعندما تبتسم، كما كانت تفعل الآن، كانت تظهر في وجنتيها غمازتان جميلتان تعيدان شبابها. وقالت ميغ:

«هل تعلمين أن فلينت لم يقرر أن يقبل وظيفتكم إلا بعد أن قابل والدك؟ فلينت يحترمه احتراماً كبيراً».

فاعترفت كايسي قائلة:

«أعرف أن أبي معجب إعجاباً كبيراً بفلينت وقدرته. فمجرد شعوره بأنه عثر على شخص في مثل كفاءته وخبرته جعل من السهل عليه قبول فكرة بقائه في المستشفى. كما طمأن والدتي أيضاً وجود رجل يتولى إدارة المزرعة».

وسمعت كايسي صوتاً من خلفها يقول:

«إن لك صفة نادرة يا كايسي، وهي مدح الانسان وراء ظهره ونقده في وجهه».

فامتقع وجهها عند سماعها ذلك الصوت، وكاد ابريق عصير الليمون أن يقع من يدها عندما استدارت في مقعدها لتواجهه. فقد كان فلينت يقف وراءها،

وهو ينظر إليها بابتسامة سعيدة. وأرادت كايسي أن تجري وتختبيء، لكنها كانت منجذبة نحوه وقد شدتها نظرته المتهكمة المرتبطة بمفاجأته لها.

«أحضرت مارك معي، لكنه ذهب ليتفقد الشاطىء. فهو خبير بأنواع الأسماك الموجودة في البحيرة».

ثمّ حوّل نظره نحو والديه وقال:

«هل أنتما مستعدان لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هنا على شاطىء البحيرة؟»

فوقف لوكاس وصافح ابنه وهو يقول:

«اعتزم أن أصيد أكبر كمية من السمك. لقد فاجأتنا. فلم نتوقع أن نراك هنا».

والتفت الأب إلى كايسي التي كانت ما زالت تحت وقع المفاجأة، وألقى عليها نظرة كلها تعاطف وشفقة، وتابع فلينت نظرة أبيه. وقال وهو يلتفت إلى أمه:

«لا تقلقي عليها، فهي دائماً سعيدة برؤيتي. لقد شعرت خلال الثلاثين ميلاً الأخيرة من رحلتي أن أذنيّ ترهفان السمع إلى حديث عني. فلا بد أنكم كنتم تتحدثون عني».

فقالت كايبي وهي تقدم له كوباً من عصير الليمون وتدفع به إلى مقعد قريب ليجلس عليه:

«يا لك من رجل متغطرس مغرور!»

وقالت ميغ وهي تحيط كايسي بابتسامتها التي لم تقو على الرد عليها بابتسامة مثلها:

«كنا نتكلم عنك بطريقة غير مباشرة، كنا نحاول التعرف على كايسي. فإذا ذكرنا اسمك فقد كان ذلك بمحض الصدفة».

وسأله لوكاس وهو يميل نحو ابنه:

«ترى لماذا لم تخبرنا يا فلينت بأن كايسي فتاة تنفرد بكل هذا الحسن وهذه

الجاذبية؟ لقد كنت دائماً أدرك مدى إعجابك وتقديرك للجمال».

فاصطبغ وجه كايسي بلون وردي، ولم تعرف مدى احتمالها لمحاولة هذه الأسرة القيام بدور الوسيط في عقد زواج بينها وبين فلينت، خاصة وقد أخذ فلينت ينظر باهتمام إلى رد فعلها لكلامهما. لقد تحمّلت ذلك على أساس أن الأمر لا يتعدى كونه مجرد دعابة. وكان واضحاً أن أحداً لن يهب لنجدتها من الحرج إزاء هذا الموضوع. لكنهما لا يدريان شيئاً عن الألم الذي يسببه لها مداعبتهما، فقد كان فلينت فرحاً لشعورها بالارتباك.

وقفز مارك إلى الشرفة ووجهه يشع بالابتسام وقال:

«أهلاً يا أختي، هذا حقاً مكان رائع وليتني أستطيع قضاء أسبوع هنا. ويمكنك أخذ مكاني في المزرعة في أي وقت تشائين».

وقامت كايسي لترحب به وتحييه وهي تقاوم رغبتها في التعلق به، كما لو كان منقذها. لكنه كان أكبر من أن تحييه بتحية حارة. غير أن مجرد الوقوف بجواره قد أعطاها مزيداً من الشجاعة، عندما همّ فلينت بأن يقدم مارك إلى والديه. وقال مارك:

«سمعت أن صيد السمك رائع هنا».

وأضاف عندما أخبره فلينت بأن والديه جاءا لهذا الغرض:

«لا بد أنهما اصطادا أحجاماً قياسية، أليس كذلك؟ فقد سمعت أن هناك أشخاصاً يطيرون خصيصاً من تكساس للصيد في هذه البحيرة».

واستجاب لوكاس بسرعة إلى فرصة تغيير الموضوع، الأمر الذي كانت كايسي ترحب به. فقد كان يعطيها الفرصة لتهدئة قلبها المضطرب بينما كان فلينت وأبوه يقصان على مارك مغامرات وقصص صيد الأسماك التي كانت تقع فريسة لشباكها. فكان من عوامل متعة كايسي وعذابها أن ترقب خدّيه النحيلين وأهدابه الداكنة، التي تحجب عينيه، وشعره البني الذي صبغه

لفح الشمس. أما عندما يتحول نظرها إلى شفتيه فإن الرجفة تنتشر في جسدها وتترك وراءها ناراً تلتهمها.

وهكذا وجدت كايسي نفسها مسلوبة الأرادة يتركز شعورها كله في شخص واحد حتى أنها انتفضت فزعاً وكادت تقفز من مكانها عندما لمست يد ذراعها وقالت لها كابي في هدوء وفي عينيها إشفاق على آلامها:

«حان موعد الغداء. هل تريدين مساعدتي في تقديمه؟»

فرحبت كايسي بالفكرة وهي تتفادى نظرات فلينت التي انصبت عليها. وتأبطت كابي ذراع كايسي وهما يدخلان إلى المنزل وقالت:

«آسفة لأنني أفزعتك. لكن كثيراً ما يكون وجهك شفافاً بحيث ينم عن مشاعرك، ولم أود أن يراك فلينت وأنت بهذه الصورة، ولو أنني أتمنى أن أصارحه بغبائه في تصرفاته معك».

فشكرتها كايسي متمتمة، وهي تعلم مدى شعورها بالخجل إذا حدث ونظر إليها فلينت في تلك اللحظة ورأى نظرة الحب التي كانت مرتسمة على وجهها، وقالت:

«ليست غلطته أن لا يحبني. فالحب من الأشياء التي تحدث أو لا تحدث».

فقالت كابي بتهكم واضح مؤثر:

«يصاب بعض الناس بالحصبة أيضاً، لكنهم يتخلصون منها بأسرع من ذلك».

وضحكت كايسي بهدوء وهي تحاول أن تضيف شيئاً من البشاشة إلى الحديث الذي كان ينذر بترقرق الدمع في عينيها:

«يشعر المرء من حديثك كأن انكسار القلب يدوم إلى الأبد».

ولكن كابي نظرت إليها بعين كأنها تتساءل أليس كذلك؟

وشعرت الفتاتان ألا طائل من وراء مناقشة الموضوع أكثر من ذلك. فظلتا صامتتين وجادتين وهما تخرجان من الثلاجة صينية الساندويشات والسلطات

والبطاطا المحمرة التي سبق إعدادها. ولم تحتاجا إلا إلى رحلتين من المطبخ إلى مائدة الشرفة ليصبح كل شيء معداً. ولم يبق غير صحن من سلطة البطاطا والفوط وأدوات المائدة الفضية التي لم تحضراها. واندهشت كايسي عندما عرض عليها مارك أن يساعدها. فلم يسبق له أن اهتم بمساعدة أحد حتى إذا كان ذلك لمصلحة معدته. وزادت دهشتها عندما كانا في المطبخ، إذ أخذ مارك يتحرك بسرعة وبعصبية كأن شيئاً يقلقه، فقالت له مازحة:

«ليس من عادتك أن تتبرع بالقيام بأعمال النساء».

فحاول أن يتفادى نظراتها وخفض من صوته وهو يقول:

«لقد أردت أن أتحدث إليك، فقد عرض عليّ السيد ماكاليستر أن أذهب معه لصيد السمك ولم أضمن أن أجد فرصة أخرى لأحدثك فيها على انفراد».

«ما الخبر؟»

وق. أدهشتها نبرته التي تدل على السرية، فقالت:

«إنك أكبر من أن تستأذنني لتذهب مع السيد ماكاليستر».

فقطب جبينه بصورة واضحة وقال:

«ليس هذا ما أعنيه... إنك ستعودين إلى المزرعة بعد أسبوع. وهناك شيء يجب أن تريه. ورأيت من الأفضل أن تعرفيه من أحد أفراد أسرتك لا من شخص غريب».

فتاقت كايسي إلى تشجيعه على البوح بما يريد أن يقوله. ولكن كان واضحاً من صوته الجاد الناضج أن من العسير عليه، ومن المحرج، أن يشرح لها ما يريد قوله. ولم تتخيل أن الموضوع يخص مارك. ولا شك لا يخص فلينت أيضاً.

وأخيراً صرح مارك بسرعة بما في نفسه وقد احمر وجهه حرجاً:

«منذ أن رحلت، أخذ سميثي يتقابل كثيراً مع بريندا فيرلي. ففي يوم رحيلك

خرج معها وذهبا إلى أحد المطاعم. وبدأت هي تتدلل عليه كعادتها دائماً وتتصرف بطيش. لكن سميتي أنبها ويبدو أنه أعجبها تصرفه الفظ فكادت ترمي بنفسها في أحضانه وهي تعتذر له عما بدر منها. ومن يومها وهما متلازمان وهناك إشاعات تقول بأنها لن تعود للكلية».

ونظر مارك إلى شقيقته ليرى وقع الخبر عليها.

لكن الدموع التي ظهرت في عينيها لم تكن لضياع سميتي منها، لكن لرقة المشاعر الأخوية التي أبداها مارك فجأة نحوها. فقد تمنت لو طوقته بذراعيها وضمته إلى صدرها. لكنها كان تعلم أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك. واكتفت بأن تركته يظن أن هذه الدموع كانت من أجل سميتي.

«أشكرك لاخباري بهذا النبأ».

وكان صوتها متحشرجاً لكن ابتسامتها كانت صادقة.

«أعلم أنك و سميتي كنتما صديقين حميمين، وبدا لي أنه من الأفضل إذا عرفت قبل أن...»

فردت عليه ببساطة قائلة:

«نعم أنت محق في ذلك».

ونظرت حولها بسرعة واستقر نظرها على الطبق الكبير الموضوع فوق المائدة فقالت لأخيها:

«خذ معك سلطة البطاطا هذه، وسأحضر أنا بقية الأشياء حالاً».

«يمكنني، أن أقول لهم أنك تغسلين الأدوات الفضية مثلاً أو أي شيء آخر من هذا القبيل...أعني إذا احتجت لبعض الوقت لكي...»

فقالت له كايسي لتطمئنه:

«سأحضر حالاً يا مارك، فأنا حقاً بخير».

وفعلا شعرت كايسي بأنها بخير حتى أنها ابتسمت لمارك وهو يخرج من

الغرفة. وقالت في نفسها وهي تتكىء على الحوض: إنها سعيدة لسميتي و بريندا، سميتي المخلص الأمين...وارتجفت شفتاها وامتلأت عيناها بالدمع. فعند عودتها هذه المرة لن يكون موجوداً بالنسبة لها، ولو حتى كصديق، لأن بريندا لن تفهم حقيقة علاقتهما. وقالت في نفسها أنها لا تتوقع حتى أن يكون سميتي، بديلا لما هي فيه من حب فاشل. وسالت دمعتان على خديها فقد سبق أن حذرها أخوها مارك من فلينت. وكان من المتوقع أن يقول لها لقد سبق أن حذرتك بدلاً من أن يقدم لها العزاء. ومع ذلك كان وقع الخبر عليها كانتزاع صخرة أخرى من أساس حياتها المتداعي.

«هل قال لك مارك أنه سيذهب للصيد مع والدي؟»

فاضطربت كايسي لصوت فلينت، لكنها لم تستدر لتواجهه بل قالت:

«نعم، قال لي».

ومشى نحوها وهو يقول:

«خطر لي أنه ربما تريدين الذهاب لزيارة والدك في المستشفى».

فقالت بصوت صارم:

«كما تريد».

وفجأة شعرت بأن أعصابها وعواطفها مجهدة بحيث لم تقو على مجادلته. لذا شغلت نفسها بالفضية الموضوعة على الرف وقالت:

«سأخرج بمجرد أن أجمع هذه الفضية».

وأمسكت أصابعه بذقنها وجذب وجهها نحوه. وجمعت كايسي كل كرامتها لتنظر بتحد في عينيه ولم يكن هناك بد من رؤية دموعها المنسابة على خديها.

وقال لها بلا اعتذار:

«لقد كنت استرق السمع، ولم أتصور أن خيانة سميتي وهجره لك سيؤثران فيك بهذه الصورة».

فدفعت يده من على ذقنها، ثم مسحت أثار الدموع من على وجهها وقالت:

«هناك أشياء كثيرة لا تعرفها عني وعن مشاعري يا سيد ماكاليستر».

فظهر الغضب في كلماته وهو يقول:

«كلما ظننت أنني بدأت أفهمك تتغيرين كما تغير الحرباء لونها».

«كنت أولاً زهرة شائكة والآن أنا حرباء».

وظهر التحدي في عيني كايسي وهي تتابع كلامها وتقول له:

«وأنت أيضاً، لا تستقر على رأي واحد».

١٦ ـ انتصار الحب

«هل بحثت هذا الموضوع مع فلينت؟»

ألقت لوسيل غيلمور هذا السؤال وعيناها الزرقاوان ترقبان وجه ابنتها المتوتر. وصاحت كايسي قائلة:

«مع فلينت؟ وما شأنه بذلك؟ ليس هذا من شأنه. إذا لم أستطع الاقامة مع العمة جو، فإنني سأقيم في فندق، لكني لن أعود إلى هناك».

فبعد الرحلة الطويلة بالسيارة مع فلينت من أوغالالا حتى المستشفى في سكوتسبلاف وصلت كايسي إلى حالة لم تعد تتحملها. ولم يعد يهمها إذا كان اقتراحها يعتبر جبناً منها أو نوعاً من الهروب، إلا أنها كانت واثقة من أنها لا تستطيع أن تكرر نفس الرحلة في العودة إلى كابين كابي مع فلينت مرة أخرى. فآلام قربها منه، وتحمل أحاديثه المقتضبة كان ضرباً من العذاب. وكان هو السبب في إسراع كايسي بإقناع والدتها بالسير معها إلى استراحة المستشفى حيث صرّحت لها برغبتها وطلبت منها موافقتها عليها.

وضعت لوسيل ذراعها حول كتفي كايسي بحنان وهي تقول لها:

«ليست المسألة يا عزيزتي هي في وجود مكان لك عند العمة جو أم لا، فهي بالتأكيد سترحب بك كما تفعل دائماً. أما سؤالي عن بحثك الموضوع مع فلينت فلم يكن سؤالاً حكياً. إذ هو غير معقول تحت الظروف التي أنت فيها. أليس كذلك؟»

وتحرّج وجه والدتها بعض الشيء، و كايسي تنظر إليها. فهل كانت تعرف شعورها نحوه؟ وهل يحتمل أنها استنتجت ما يدور بينهما؟

«أي نوع من الأم أنا إذا لم أشعر بأن ابنتي قد أحبت؟ خذي...»

وبحثت في حقيبة يدها وأخرجت مجموعة من المفاتيح وقالت:

«هذه مفاتيح سيارة العمة جو الموجودة في الموقف. وسأجد عذراً أقدمه لفلينت ووالدك عن غيابك...أسرعي...وسنتكلم فيما بعد».

فعانقت كايسي أمها بقوة، وأمسكت في يدها المفاتيح التي ستطلق سراحها وحريتها. وهمست لأمها بحرارة قائلة:

«أشكرك».

وأطبقت شفتيها بقوة وهي تنتزع نفسها من بين أحضان أمها. وابتسمت لها ابتسامة العرفان بالجميل قبل أن تسرع عبر الممر في طريقها إلى باب الخروج من المستشفى. وكان الموقف مليئاً بسيارات زوار نهاية الأسبوع. ونظرت كايسي إلى صفوف السيارات المتراصة بحثاً عن السيارة الصفراء الكبيرة الخاصة بعمتها. وانتابها الخوف عندما أخفقت في العثور عليها. فلا بد وأن تكون موجودة...بل يجب أن تكون موجودة!

وقبل أن تدرك ما يحدث، كانت يدان تمسكان بكتفيها بعنف وتدفعانها نحو السيارة الخضراء الكبيرة التي جاءت بها إلى المستشفى. لكنها لمحت السيارة الصفراء الكبيرة، بعد فوات الأوان، في صف السيارات المجاورة لها. ولم يضيع فلينت وقتاً في الأدب والمجاملات بل دفع بكايسي إلى سيارته ليرغمها على الجلوس في المقعد المجاور لمقعد القيادة. لكنها أمسكت بالباب الآخر لتفتحه. غير أنه أمسك بيدها وهو يقول:

«لا تضيعي وقتك، فهو مغلق».

وأدار محرك السيارة بيده الأخرى ورجع بها إلى الوراء.

وصاحت فيه كايسي وهي تلوي معصمها وتحاول أن تحرر يدها من قبضته حتى تستطيع الهرب إلى السيارة الصفراء.

وألقى عليها فلينت نظرة قبل أن يحوّل انتباهه، وهو غاضب إلى الطريق الممتد أمامه.

«لم أكن أتصور أنك من هؤلاء النساء الضعيفات اللواتي يهربن وينزوين عندما تجرح مشاعرهن لمجرد أنّ شاباً يافعاً...»لتستمتع

وتنفس بصعوبة، ولم يتم جملته.

«إنك تؤلم ذراعي».

ولم تحاول كايسي أن تخفي الألم الممتزج بصوتها وهي تطمئنه بوضوح وقوة رغم نظرة فلينت الموجهة لها:

«إنني لن انتحر بالقفز من السيارة وهي تسير بهذه السرعة».

فهدأ فلينت من سرعته وترك يدها حرة وسارا في طريق يغطيه الحصى وقد تركا المدينة وراءهما. وأخيراً أوقف فلينت السيارة على جانب الطريق، وحوّلت كايسي نظرها إلى الصخور الرملية البعيدة وهي تقاوم جاذبيته القوية التي يصوبها نحوها من خلال عينيه ويجبرها بها أن تنظر إليه.

وكان صوته خافتاً، متزناً وهو يقول:

«أعلم أن أخبار سميثي كانت صدمة لك. لكن آثارها ستزول يا كايسي، فما عليك إلا إعطاء نفسك الوقت الكافي للنسيان».

فأنّت كايسي وهي ترفع يديها إلى أذنيها وتقول:

«وفّر نصائحك لنفسك، ووفر عليّ أقوالك التافهة».

وعاد قلبها يدق بشدة وجسمها يرتعد لرقة توسله إليها. فلم يكن معقولاً ألا تستجيب للهجته المستعطفة وهو يقول:

«لماذا تنزوين بجوار الباب هكذا؟ إنني أحاول أن أساعدك».

ورفع إحدى يديه الخشنتين وقبض على إحدى يديها. ولكن ليس بالقوة التي استخدمها معها من قبل. بل كانت في هذه المرة قبضة رقيقة كما لو كان يمسك بعصفور يعاني من الخوف، ويجد من السهل الافلات من قبضته. لكن كايسي استبقت يدها في يده. وعاد يقول برفق:

«ستقابلين غيره وستحبينه كما أحببته».

وهذه المرة التفتت لتواجه عينيه وحملقت في وجه الرجل الذي أحبته من قلبها. وانفلت أنة من شفتيها وهي تقول:

«كلا... كلا... لن أحب بعد الآن».

وغمرها بلهيب نظراته قبل أن يحاول فلينت تهدئتها بقوله وهو واثق مما يقول:

«بل لا بد ستحبين شخصاً ما».

فحولت نظرها وهي تغالب الدموع التي ملأت عينيها:

«إنك طيّب جداً يا فلينت. لكن لا فائدة من ذلك الآن».

فتوسل إليها فلينت وهو يئن قائلاً:

«يا إلهي، أرجوك ألا تبكي يا كايسي».

وقرّب المسافة التي بينهما قبل أن تحتج كايسي. وضمها بين ذراعيه وصرّح قائلاً:

«إنني لا أحتمل أن أراك باكية».

ودفن وجهه في شعرها بينما أخذت كايسي تقاوم بلا فائدة بسبب قوة احتوائه لها بين أحضانه. وتوسلت بصوت لا يكاد يسمعه:

«أرجوك، أرجوك أن تتركني».

وكان توسلاً أملاه عليها عقلها. أما بقية كيانها فكان ينعم بقربه.

وضحك بمرارة وابتعد قليلاً بحيث أمكنه النظر إلى سجينة أحضانه التي

أصبحت مستسلمة بلا حول ولا قوة.

«قالت لي كايي اليوم أنني غبي ومجنون لمعاملتك بالطريقة القاسية التي أعاملك بها. لكنها لا تعلم أن هذه الطريقة هي الوحيدة التي تمنعني من الاقتراب منك».

ولم تستطع كايسي أن تحبس الصيحة التي أطلقتها بسبب كلماته

«وحتى الآن. وأنا أعلم أن الدموع التي على خديك هي لرجل آخر. إذ كل ما أتمناه ان أسعدك...»

وحملق في الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها وقال:

«هل تجدين أي طرافة في هذا القول؟»

فهمست وعيناها الداكنتان تلمعان من السعادة التي لم تكن تتوقعها

«كلا...»

«بل لا بد تجدينها كذلك».

ورفعت أصابعها لتسكته وأبقتها على فمه وهمست تقول

«هل تعني أنك تحبني؟»

«إذا أردت أن أقر بذلك كتابة. فنعم... أنا أحبك!»

فحبست أنفاسها لقوة نبرات صوته وأغمضت عينيها لتستمع بجلال هذه اللحظة قبل أن تقول بصوت مرتعش لكنه سعيد:

«من حقك أن أقول لك أن هذه الدموع هي لرجل كان يعتبرني مجرد زهرة شائكة»

فرفع بيده ذقنها إليه حتى يستطيع النظر في وجهها

«أتعنين أن سميثي ليس...»

«أعني أنني أحبك يا فلينت ماكاليستر».

ولم يستطع فلينت أن يصدق أن هذه الكلمات الهادئة المتزنة يمكن أن

تصدر من جسمها المرتعد.

وتلت ذلك فترة سكون. وكانت اللحظات التالية عاصفة تضطرم فيها نيران الحب بينهما. ثم قال فلينت:

«عندما أفكر في الجحيم الذي عرّضتني له، أود لو قصفت عنقك!»

وكانت كايبي متأثرة من كلام فلينت والنبرة المتحشرجة في صوته.

«لم أستطع أن أصدق أنك لم تحبيني، ولكنك حين أنكرت ذلك بشدة يوم أن أوصلتك إلى كايبي اضطررت أن أصدقك. وبرغم ذلك أردت أن تتعرفي على أسرتي كما تعرفت أنا على أسرتك».

«ظننت أنك أردت التخلص مني وأنك استخدمتني لارضاء رغباتك وغرورك. كما كنت خائفة من أنني أتوقع منك أن...أن...»

وحاولت كايبي أن تشرح ما تريد لكن فلينت فهم ما تعنيه وأتم كلامها:

«...أن أتزوجك».

وضحك فلينت لحمرة الخجل التي انتشرت في وجنتيها.

«لقد قررت أن أتزوجك يوم أن اعتذرت لي بطريقتك الجميلة، الرقيقة. والآن هذا هو ماسأفعله. سنتزوج بمجرد حصولنا على رخصة الزواج».

وتوقف عن الكلام وترك عينيه تجولان فوق وجهها وقال:

«وسيكون فستان الزفاف أبيض مثل لون زهرة الخشخاش الشائكة».

فضحكت كايبي وقد أسعدها الحب الذي يشع من عينيه الرماديتين وقالت:

«ظننت أن العروس هي التي تنظم حفل العرس».

«هذا هو ما يحدث عادة».

وجذبها نحوه بحنان وتهل قليلاً ليهمس في أذنها:

«أخشى أن تستغرق الترتيبات منك وقتاً طويلاً، وأنا لا أستطيع الانتظار».

فحبست كايبي أنفاسها من الحب الذي لمع في عينيه وهي تدير رأسها لتلقيه على كتفيه هامسة:

«إنك بحق الرئيس الكبير!»